إينولا هولمز

وقضية اختفاء المركيز

إينولا هولمز «وقضية إختفاء الماركيز»
رواية / نانسي سبرينجر.
ترجمة: باسم الخشن.
القاهرة: كيان للنشر والتوزيع، 2020.
268 صفحة، 17 سم.
تدمك: 978-977-820-073-7
ا- القصص الأمريكية
أ- الخشن، باسم (مترجم)
ب- العنوان: 823
رقم الإيداع: 2020/14828
الطبعة الأولي: سبتمبر 2020.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

The Case of the Missing Marquess: An Enola Holmes Mystery by Nancy Springer.
Copyright – © Nancy Springer, 2006
All rights reserved.
Arabic translation rights arranged with Jean V. Naggar Literary Agency, Inc. New York.
© Netflix 2020. Used with permission.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشر**.

©جميعُ الحقوق محفوظةٌ، وأيُ اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأية وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرضُ صاحبه للمساءلة القانونية.

إينولا هولمز

وقضية اختفاء المركيز

نانسي سبرينجر

ترجمة: باسم الخشن

رواية

الإهداء

إلى أمي ..

نانسي سبرينجر

«خطوات ثقيلة جاءت من ورائي، قفزتُ للأمام ناويةً الفرار ولكني كنتُ متأخرة.»

الخطـوات جـاءت في أثـري وقبضـةٌ حديديـة أمسكتْ بذراعي. بـدأتُ في الـصراخ ولكـنَّ كفًّـا فولاذيًّـا وُضـع عـلى فمـي، وبالقـرب مـن أذني صـوت عميـق قـال بغضـب: لـو تحركـتِ أو صرخـتِ سـأقتلكِ.

تجمَّدتُ من الهلع.

بعيـون مُتسـعة حدقـتُ إلى الظـلام ولـم أسـتطع الحركـة، بالـكاد اسـتطعتُ التنفـس وأنـا واقفـة ألهـث.

تركـتْ قبضتـه يُـسراي، وتسـللت حـولي لتُمسـك بكلتـا ذراعـيَّ بقـوة لتضعهمـا عـلى جانـبيَّ، دافعًـا ظهـري ليضغـط عـلى مـا كنـتُ سـأظن أنـه حائـط حجـري لـو لـم أعـرف أنـه صـدره.

رفـع يـده مـن عـلى فمـي ولكـن في لحظـةٍ قبـل أن تسـتطيع شـفاتي المرتعشـتان أن تكـوِّن صوتًـا، وفي الضـوء الضعيـف للشـارع رأيـتُ لمعـةَ الحديـد.

نصْل طويل وأملس كقطعة ثلج؛ نصل سكين.

في الجانب الشرقي من لندن
بعد حلول الظلام أغسطس ١٨٨٨

كان الضوء الوحيد يأتي من لمبات الجاز التي بقِيتْ سليمة، ومن موقد نار فوق الرصيف يُزكيه رجل عجوز يبيع الحلزونات المسلوقة خارج الحانات.

الغريبة ترتدي الأسود بالكامل من قُبعتها حتى حذائها الطويل، انزلقتْ بين ظلٍّ وآخَر وكأنها ذاتها مجرَّد ظل. من حيث أتتْ كان وجودها في ذلك الوقت من الليل بدون مُرافق كزوجٍ أو أب أو أخ شيئًا لا يمكن تصوُّره.

ولكنها ستفعل كل ما يجب عليها فعله لتجد من ضاع.

عيناها المتسعتان تشاهدان من تحت غطاء وجهها الأسود، وتمسح بعينيها وهي تمشي، لا تتوقف عن البحث، ترى الزجاج مكسورًا على الأرصفة المُتشققة، ترى فئرانًا يشقُّون طريقهم في جرأة من خلفهم أذيالهم المُقززة.

ترى الأطفال يركضون حُفاة الأقدام بين الفئران والزجاج المكسور، وترى الأزواج؛ الرجال في فانلاتهم الحمراء، والنساء في قُبعات القش الرخيصة يتحركون ذراعًا في ذراع. ترى أحدَهم مُلقًى بجانب حائط، سكران أو نائمًا، بجانب الفئران.. ربما كان ميتًا.

تنظر وأيضًا تسمع في مكانٍ ما أحدهم يصدَح بأغنيةٍ في الهواء المليء بالسُّخام. الباحثة ذات الرداء الأسود تسمع موسيقى. تلك الموسيقى. وتسمع أيضًا فتاةً تُنادي «أبي.. أبي؟» خارج أبواب حانة. تسمع صرخات، ضحكات، بكاء، سُكارى، بائعين ينادون: محار اغمِسْهم في الخل وابلعْهم مرةً واحدة. محارات مُمتلئة بِبُني واحد.

تشمُّ الخل، والجبن، والكرنب المسلوق، والسجق الساخن، والمياه المالحة للميناء المجاور، والرائحة النتنة لنهر «تامز».

تشم رائحة السمك، وتشم رائحة المجاري. تُسرع بخطواتها. يجب عليها أن تستمر في الحركة؛ فإنها ليست باحثة فقط، ولكن أحدَهم يبحث عنها أيضًا. ذات الصيادة ذات الرداء الأسود، أحدُهم يحاول صيدَها. يجب أن تتحرَّك بعيدًا حتى لا يجدها الرجل الذي يُطاردها.

عند عمود النور التالي ترى امرأةً بشفتين ملونتين وعينين ملطختين بالأصباغ تنتظر عند مدخل.

سائق أجرة وَسِيم يقف، ويترجل رجل يلبس سترةً ذات ذيل طويل وقبعة لامعة حريرية طويلة. بالرغم من أنَّ السيدة الواقفة عند المدخل ترتدي فستان سَهرة مفتوحًا كان في الأغلب ملكًا لسيدةٍ من المجتمع الراقي، فإنَّ ذات الرداء الأسود لم تفكر أن ذلك الرجل كان هنا من أجل الرقص. كانت ترى أنَّ عين العاهرة مليئة بالرعب، حتى وإن ارتسَمَتْ على شفتيها الحمراوين بسمة واسعة. واحدة مثلها قد وجدت جُثتها على بُعد بضعة شوارع من هنا مشقوقة الجسد. تحركت ذات الرداء الأسود مُتجنبةً أن تُرى.

رجل ذو ذقن نابتة يستند إلى الحائط غمَز لها قائلًا: يا آنستي، ما الذي تفعلينه وحدك؟ ألا ترغبين في صُحبة؟

لو كان رجلًا نبيلًا لتجنَّب أن يُحادثها دون أن يتعرَّفا أولًا. أسرعت الخُطى من أمامه متجاهلةً إيَّاه. يجب عليها ألا تتحدَّث مع أحد، هي لا تنتمي إلى هنا، ومعرفتها بذلك لم تُضايقها؛ فهي لم تكن تنتمي لأي مكانٍ أبدًا. وبشكلٍ ما قد كانت وحيدة

دائمًا، ولكنَّ قلبها لم يخلُ من الألم، وهي ما زالت تمسح الظلال، كونها لا تملك بيتًا الآن، هي غريبة في أكبر مدينةٍ في العالم، ولا تملك أدنى فكرةٍ أين ستقضي ليلتها، أو حتى إذا كانت ستحيا حتى الصباح. أملها الوحيد أن تجد من تبحث عنه؛ تخترق الظلال وحواري شرق لندن، وتمشي وحيدة.

الفصل الأول

أريـد أن أعـرف حقًّـا لمـاذا أطلقـتْ عـليَّ أمـي «إينـولا»؛ فاسـمي إذا عكسـته بالإنجليزيـة تجـد أنـه «ألـون alone» أي وحيـدة، كانـت أمـي دائمًـا -وربمـا مـا تـزال- عاشـقة للشـفرات.

وبالتأكيـد كان هنـاك شيء مـا يـدور برأسـها وهـي تفعـل ذلـك كنذيـرٍ أو كخُطـة لحيـاتي. فحـين سـمَّتني لـم يكـن أبي قـد مـات بعـد.

عـلى أي حـالٍ فقـد كانـت دائمًـا مـا تقـول لي بشـكل يـكاد يكـون يوميًّـا في طفولـتي: «سـتكونين بخـيرٍ وحدك يا إينـولا».

كانـت تُكـرر لي ذلـك شـاردةً وهـي تخـرج بلوحتهـا وألوانهـا لتتجـوَّل في الريـف.

و«وحيـدة» صِرتُ حـين رحلـت في أمسـية مـن يوليو، في عيـد ميـلادي الرابـع عـشر حـين لـم تعُـد لـ«فرنـدل هـول» حيـث كان منزلنـا.

احتفلـتُ بعيـد ميـلادي عـلى أي حـالٍ مـع الخـادم «لـين»، وزوجتـه الطباخـة. لـم يُضايقـني غيـاب أمي في

البداية؛ فأنا وأمي لم نعتَد التدخُّل أبدًا في شئون بعضنا البعض، افترضتُ أن أمرًا هامًّا شغلَها، واضطرَّها للغياب، حيث إنها تركت لي طردًا مع السيدة «لين» لتُعطيني إيَّاه وقتَ الشاي.

كانت هدية أمي تتكوَّن من عدة رسْم؛ ورقة، قلم رصاص، سكِّين أقلامٍ لبَرْيِهم. مِمحاة مطَّاطية، كل ذلك مُرتب بعناية في صندوق خشبي يفتح ليصبح حاملًا للرسم، وكتاب سميك بعنوان (معنى الزهور) يحتوي أيضًا على ملاحظاتٍ على الرسائل التي جاءت عن طريق المُعجبين، ومناديل قماشية، وشمع، وأختام، وطوابع بريد، وكُتيب شفرات صغير.

بالرغم من قدراتي المتواضعة في الرسم؛ كانت أُمي دائمة التشجيع لي، كانت تعرف أنني أستمتع برسوماتي، وتعرف أني أحب أيضًا قراءة أي كتاب في أي موضوع كان؛ ولكن لم يكن موضوع الشفرات خاصَّةً موضعَ اهتمامي حقًّا.

بالرغم من ذلك فقد صنعَتْ ذلك الكتيب الصغير بيدِها كما هو واضح. طوَتْ وخاطت الصفحات، وزخرفته بألوان الماء.

من الواضح أنها كانت تعمل على تلك الهدية

لفـترةٍ طويلـة. اهتمامهـا كان جليًّـا. ظللـتُ أخـبر نفـسي مـرارًا بذلـك طـوال الأمسـية، بينمـا لـم أكـن أملـك أدنى فكـرةٍ عـن مـكان أمـي. توقَّعـتُ أنهـا سـتعود للمـنزل أو أنهـا سـتبعث برسـالةٍ أثنـاء الليـل. نِمْـتُ بسـلام ولكـن في اليـوم التـالي حـين هـزَّ لـين رأسـه وهـو يُخـبرني أن سـيدة المـنزل لـم تعُـد بعـد، ولـم يـأتِ أي خـبر منهـا، في الخـارج كان المطـر الرمـادي يتسـاقط مُتناسـبًا مـع حالـتي المزاجيـة الـتي كانـت تسُـوء باطِّـراد، بعـد الإفطـار. عـدتُ متخاذلـةً لغرفـة نَومـي كمَلجـأ لطيـف؛ حيـث كان الـدولاب والتسريحـة مَطليَّـين باللـون الأبيـض، وخليـط مـن الـوردي والأزرق بزخـارف حـول الأطـراف. كان يُطلـق عـلى ذلـك النـوع أثـاث كوخـي، كان أثاثًـا رخيصًـا يصلـح فقـط لطفـلٍ ولكـني أحببتُـه، أحببتُـه في أغلـب الأيـام ولكـن ليـس اليـوم. لـم أسـتطع البقـاء في الداخـل، لـم أسـتطع البقـاء مُنتظـرة، ارتديـتُ قميصًـا، وبنطـالًا قصـيرًا.. ملابـس مُريحـة كانـت تخـصُّ إخـوتي الكبـار، وفوقهـا ارتديـتُ معطـفَ الأمطـار، اتجهـت للأسـفل وأخـذت مظلَّـة مـن عـلى المنضـدة في الطُّرقـة وخرجـتُ مـن بـاب المطبـخ بعـد أن أخـبرتُ السـيدة «لـين» أنـني سـأذهب لأُلقـي نظـرةً في الأنحـاء.

غريب! تلك كانت نفس الكلمات التي أقولها اليوم حين أخرج لأبحث عن الأشياء، ولكن في العادة لم أكن أعرف ما الذي أبحث عنه.. أيُّ شيءٍ الحقيقة.. كنتُ أتسلَّق الأشجار لأرى ما الذي يوجَد هناك. قواقع حلزونات، فوقها خطوط صفراء وحمراء داكنة، قِشر بندق، أعشاش طيور، وإن وجدتُ عشَّ غرابٍ فإني أرى بداخله أشياء؛ أزرار، وشرائط لامعة، حَلَق ضائع لأحدِهم.. كنتُ أتظاهر أنَّ تلك أشياء ذات قيمة كبيرة. فكنتُ أبحث؛ ولكن تلك المرة لم أكن أتظاهر، والسيدة «لين» عرفت أن تلك المرة أيضًا مختلفة. ففي أي يومٍ آخر كانت ستقول لي كما تقول لي دائمًا «أين قُبعتك يا آنسة إينولا؟» فأنا كنتُ لا أرتديها أبدًا، ولكنها لم تقُل أي شيءٍ وهي تراني أذهب.. أذهب لأبحث عن أُمي. اعتقدتُ حقًّا أنه يمكن أن أجدها بنفسي، ما إن خرجت من المطبخ، ومن مجال رؤية من في المطبخ حتى بدأتُ في العدو، كنتُ أعدو في كل مكان ككلب صيد، أبحث عن أي أثرٍ لأُمي. في اليوم الماضي وبمناسبة عيد ميلادي، فقد سُمح لي أن أظلَّ في الفراش لوقتٍ متأخِّر؛ ولذا لم أرَ أُمي وهي تخرج، ولكن بافتراض

أنهـا كالعـادة قضـتْ بضـع سـاعاتٍ ترسـم أزهـارًا ونباتـات، فقـد بحثـتُ عنهـا أولًا في «عزبـة فرنـدل». كانـت أُمـي تحـبُّ أن تـترك كل مـا ينمـو ينمـو. سِرتُ هائمـةً عـلى وجهـي عـبر حدائـق الزهـور الـتي طالتهـا يـد الإهمـال، والمـروج الـتي غزَتْهـا الأشـجار البريـة والنباتـات الشـائكة، غابـات تكتنفهـا أغصـان نباتـات العنـب واللبـلاب المُتسـلقة. كل هـذا بينمـا السـماء الرماديـة تنتحِـب بدمـوعٍ مـن أمطـارٍ مـن فـوقي.

رينولـد كلـب الرعـي العجـوز كان يجـري بجـواري حـتى تعِـب مـن البلـل، فتركَـني ليجـد مَخبَـأ مـن الأمطار-كائن عاقـل- كنـت غارقـةً حـتى رُكبـتيَّ، وكنـتُ أعلـم أنـه يجـب عـليَّ أن أفعـل مِثلـه، ولكـن كان قلقي قـد وصـل لمـداه، ومـع قلقـي كانـت تـزداد سُرعـتي، كنـتُ أشـعر بالهلـع والخـوف يقـودني كالسَّـوط، هلَـع أن تكـون أمـي مُلقـاةً في مـكان مـا بعيـدًا، مريضـةً أو مُصابـة بـالأذى، خـوف لا يمكـن إنـكاره؛ فأُمـي لـم تكن صغـيرةً في السـن، فربمـا أُصيبـت بأزمـة قلبيـة ، ربمـا كانـت -وإن كان مـن الصعـب أن يسـتطيع المـرء أن يفكـر في ذلـك بكلمـاتٍ غـير تلـك- انتهـتْ.. عـبرَتْ.. رحلَـت.. ذهبـتْ لتكـون مـع أبي. لا.. أرجـوك.. يظـنُّ

المرء حيث أنا وأمي لم نكن قريبَين أنَّ اختفاءها لم يكن ليؤثر عليَّ كثيرًا، ولكن ما حدث كان العكس تمامًا. راعَني ذلك. فقد شعرتُ أنَّ سوء الأمور بيننا كان خطئي بالكامل، شعرتُ دائمًا باللَّوم في كل شيء، كنتُ أُلامُ على أنِّي أتنفَّس حتى، لأني وُلدتُ في مرحلةٍ عمرية غير لائقة في حياة أمي، وكأنَّ الأمر أشبَهُ بفضيحة؛ كنتُ حِملًا. كنتُ أعتمد دائمًا على أنِّي سوف أُصلح الأمور حين أكبر، في يومٍ ما.. أمَّلتُ في ذلك... كنتُ أخطط أن أجعل من حياتي نورًا ساطعًا يرفعني من ظلال الخِزي، وبعدَها فإنَّ أُمي سوف تُحبني؛ لذا فيجب أن تكون حيَّة، ويجب أن أجدها. ركضتُ باحثةً في أنحاء الغابة التي كان يصطاد فيها أجيال من الإقطاعيين الأرانب، والدجاج البري، تسلَّقتُ صعودًا وهبوطًا عبر الصخور البارزة المُغطَّاة بنباتات السرخس في الكهف الذي كان السبب وراء الاسم الذي حمَلَتْهُ المقاطعة.

مكان أحببتُه لكني اليوم لم أُطِل البقاء، استمررتُ حتى أطراف الحديقة حيث انتهتِ الأشجار، وبدأتِ الأراضي الزراعية. استمررتُ في البحث داخل الحقول، حيث إنَّ أمي كان من

الممكـن أن تكـون هنـاك مـن أجـل الزهـور. ولأنَّ «فرنـدل» قريبـة مـن المدينـة؛ فـإنَّ القاطنـين فيهـا كانـوا يزرعـون أزهـار الزنابـق وزهـور البنفسـج بـدلًا مـن الخـضراوات، حيـث كانـوا يُنمُّونهـا أفضـل بتوصيل زهـور جديـدة يوميًّـا لحديقـة «كوفنـت». هنـاك مـا يُنمِّـي صفوفًـا مـن الـورود، محاصيـل زهـور الكربسـيز الذهبيـة، وزهـور الزينيـا والخشـخاش، كلهـا مـن أجـل لنـدن.

كنـت أحلـم وأنـا أتأمَّـل حقـول الزهـور، بمدينـةٍ مُبهـرة مضيئـة، كلَّ يـومٍ تمـرُّ الخادمـات ليضعـنَ باقـةً مـن الزهـور في كل غرفـةٍ مـن غـرَف القـصر كلَّ صبـاح. وفي كل ليلـة كانـت السـيدات النبيـلات يتعطَّـرنَ ويُزيِّـنَّ شـعورهنَّ وقمصانهـن بشـقائق النعمـان والبنفسـج. لنـدن حيـث.. ولكـن اليـوم فداديـن الزهـور المُبلَّلـة بالمطـر وأحلامـي لـم تـدُم أكـثر مـن نفـسٍ أو اثنـين قبـل أن تتبخَّـر مثـل الضبـاب المُتصاعـد مـن الحقـول.. تلـك الحقـول الشاسـعة المُمتـدَّة لأميـال. أيـن أُمـي؟ أتـرى -في أحلامـي عـن أُمـي وليـس أحلامـي عـن لنـدن- كنـتُ أجدهـا؟ كنـتُ بطلـة، كنـت بطلـة قصَّـتي، وكانـت تتأمَّلـني بـكل الامتنـان والحـب. ولكـن كانـت تلـك مجـرد أحـلام، وكنـتُ غبيـة.

حتى الآن بحثتُ في ربع الأملاك أو أقل، ما تزال هناك الأراضي الزراعية. لو كانت أمي الآن تركض مُصابة فسترحَل عن عالمِنا قبل أن أستطيع أن أجدها بنفسي.

استدرتُ وعدتُ مُسرعةً إلى القصر وحين وصلتُ إلى مدخل القصر أحاط بي كلٌّ من السيد والسيدة لين كزوجَيْ حمام وهو يخلع عنِّي كلًّا من المظلة والمعطف وحذائي الغارق، بينما اقتادتْني السيدة لين ناحية المطبخ لأحصل على بعض الدفء. لم يكن بإمكانها تعنيفي، ولكنها أوضحتْ رأيها فيما فعلْتُهُ قائلة: الشخص الذي يبقى في المطر لعددٍ كبير من الساعات لا بدَّ أن يكون غير عاقل.

قالتها موجهةً حديثها للموقد الكبير الذي يعمل بالفحم وهي ترفع أحد أغطيتِه: لا يهمُّ إن كان هذا الشخص أرستقراطيًّا أو من العامَّة؛ فإنَّ البرد يستطيع أن يقتُلَه.

أما تلك الجملة فقد كانت موجَّهةً إلى إبريق الشاي، فلم يكن هناك حاجة إلى ردٍّ منِّي. فغير مسموح لها أن تقول لي أيَّ شيءٍ من هذا القبيل.

- من الجيد أن يكون للشخص عقل مُستقل دون أن يُلقي بذاته في التهلكة ويُصاب بالالتهاب الرئوي

أو ما هو أسوأ.

أما ذلك فقد قالته إلى أكواب الشاي قبل أن تلتفِتَ إليَّ مُغيِّرةً من لهجتها: أستميحك عذرًا يا آنسة «إينولا» هل ستتناولين الغداء؟ وألن تُقرِّبي كرسيك من الموقد قليلًا؟

- لو اقتربتُ أكثر من ذلك سوف أتحمَّص مثل التوست.. لا، لا أريد تناول الغداء. هل هناك أي أخبارٍ عن أمي؟

كنت أعرف الجواب بالفعل، ولكني لم أتمالك نفسي من التساؤل، بالتأكيد السيد أو السيدة لين كانا سوف يُخبراني في الحال إذا أتاهُما أيُّ خبر.

- لا، لا شيء يا آنستي.

حشرَتْ يدَيها في مئزرها وكأنها تلفُّ طفلًا رضيعًا. قمتُ واقفة.

- هناك بعض الخطابات أُريد أن أكتبها.

- آنسة «إينولا» لا توجد مدفأة في المكتبة، دَعيني أُحضِر لك الأشياء التي تحتاجينها هنا على الطاولة.

استحسنتُ فكرة أنني لن أُضطرَّ إلى الجلوس على الكرسي الجلدي الضخم في غرفة المكتبة القاتمة.

جلبَتْ لي السيدة «لين» الورق المطبوع عليه شعار العائلة والمَحبرة والقلم من المكتبة، وبعضًا من الورق النشاف. غمستُ القلم في المحبرة، وخطَطْتُ على الورق باللون الكريمي كلماتٍ للشرطة لأُخبرهم أنه يبدو أنَّ والدتي قد ضلَّت طريقها، وطلبتُ أن يُنظَّم بحث عنها، ثم جلستُ مفكرةً هل يجب عليَّ حقًّا؟ للأسف نعم، لم يكن بالإمكان تأجيل الأمر أكثر من ذلك. كتبتُ برقيةً أخرى ولكني كتبتُها ببطء شديد، كانت تلك البرقية ستقتطع أميالًا عبر الأسلاك لتُطبع بعد ذلك على النحو التالي:

السيدة «يودوريا فيرينت هولمز» مفقودة منذ يوم أمس – نقطة –

برجاء تقديم المشورة – نقطة –

إينولا هولمز

أُوجِّه تلك البرقية إلى كلٍّ من «مايكروفت هولمز» القاطن في «بال مول» بلندن.

وإلى «شيرلوك هولمز» في شارع «بيكر ستريت» بلندن،

أخويَّ الاثنين.

الفصل الثاني

بعد أن أنهيتُ كوب الشاي إرضاءً للسيدة «لين»، بدَّلت ملابسي، وقرَّرتُ أن أتجه للقرية لإيصال برقيتي.

قالت السيدة «لين» وهي تفرُك يديها داخل مئزرها مرةً أخرى: ولكنَّ المطر والبلل... دعي «ديك» يأخذهم.

كانت تتحدَّث عن ابنها الأكبر الذي يقوم بعدَّة وظائف غريبة في أنحاء العزبة تاركين مهمة الإشراف عليه للكلب «ريجينالد» كونَه أكثر ذكاءً من «ديك». لم أُرد أن أخبر السيدة «لين» أنَّني لا يمكنني الوثوق بـ«ديك» لمِثل هذه المهمة فأخبرتُها أني سأحتاج أن أسأل في الأنحاء أثناء وجودي هناك، وسوف آخُذ الدرَّاجة.

لم تكن الدرَّاجة من الطراز القديم ذي العجلات العالية، ولكنها دراجة حديثة قصيرة إطاراتها مُتماثلة، وآمنة تمامًا.

بدَّلتُ عبر رذاذ الأمطار وتوقفتُ لدقيقة بجوار

بيت حارس العزبة. وأصدقكم القول، كان منزلًا من الحجر يحاول نفخ صدرِه ليبدوَ أكبر، لكنه يمتلك ممرًّا، بوابة، ولهذا كان يصلُح كَبَيت.

- «كوبر»؟

سألتُ الحارس: هلَّا فتحتَ البوابة من أجلي؟ وبالمناسبة، أتتذكَّر إذا كانت فُتِحَت البوابة لأُمِّي ليلة أمس؟

دون أن يخفي دهشته من السؤال أجاب بالنفي: لم تمرَّ السيدة «هولمز» من هذا الطريق.

بعد أن فتح لي البوابة بدَّلتُ لمسافةٍ قصيرة حتى وصلتُ إلى قرية «كينفورد».

بعثتُ ببرقيَّاتي في مكتب البريد، وتركتُ رسالتي الأخرى في مكتب الشرطة وتحدثتُ مع الضابط قليلًا، ثم بدأتُ جولاتي؛ مررتُ بالكنيسة، ومحل الخضراوات، والمخبز، والجزار، ومحل الحلويات، ومحل السمك، وكل مكانٍ آخَر يمكن المرور عليه لأسأل عن أمي دون إثارة الضجَّة.

لم يرَها أحد.

زوجة الكاهن رفعتْ حاجبَيها وأنا أسألها، ولكن أعتقد أنَّ ذلك كان بسبب ملابسي. فقد كان عليَّ

ارتـداء شيءٍ مناسـبٍ أكـثر مـن وجهـة نظرهـم وأنـا أقـود الدرَّاجـة خـارج العزبـة. ربمـا سروالًا مُغطًّـى بتنُّـورةٍ مقاومـة للمـاء أو أي تنُّـورة طويلـة بمـا يكفـي لتُغطِّـي كاحِـلي، وليـس هـذا البنطـال القصـير الفضفـاض.

كُنـت أعلـم أنَّ والـدتي تعرَّضـتْ لانتقـاداتٍ حـادةٍ بسـبب فشـلِها في تغطيـة الأشـياء الفجَّـة مثـل كـوَّة الفحـم، ظهْـر البيانـو، وأنـا.

كنـت طفلـةً صادمـة، لـم أُشـكِّك أبـدًا في عـاري، لأنَّ ذلـك كان مـن شـأنه أن يتطـرَّق إلى أمـورٍ لا يجـب عـلى فتـاة مُهذَّبـة معرفتهـا. لكـني لاحظـتُ أن معظـم النسـاء المُتزوِّجـات يَختفـينَ في منازلهـن كلَّ عـامٍ أو عامَـين ليخرجـوا بعـد عـدة أشـهر بطفـلٍ جديـد. قـد يصـل العـدد إلى دسـتة أطفـال حـتى يتوقَّفـوا عـن ذلـك، أو تنتهـي صلاحيتهـم. وبالمقارنـة فـإنَّ أُمـي قـد جـاءت فقـط بشـقيقي الأكـبر سـنًّا حـتى وصـولي المتأخِّـر الـذي رفـع القيـد الـذي وضعتْـهُ على نفسـها، ممـا جعـل الأمـر أكـثر خِزيًـا لرجـلٍ عقـلاني مثـل أبي، ولزوجتـه الفنانـة طيبـة المَعـشر.

بينمـا أتجـوَّل في أرجـاء «كينفـورد» اسـتمرَّت الحواجـب في الارتفـاع، والـرءوس في التقـارُب والهمـس.

تلك المرة بدأتُ في السؤال في النُّزُل، وعند الحدَّاد، وصانع التبْغ، وحتى الحانة؛ أماكن نادرًا ما تطؤها النساء المُهذَّبات، ولم أحصل على أي معلومة جديدة.

وبالرغم من كل محاولاتي في أن تبدو أسئلتي عابرة، فكان يمكنني سماع أوركسترا النميمة والشائعات يعلو ويكبُر وأنا عائدة أجرُّ أذيال الخيبة لعزبة «فرنديل».

«لم يرَها أحد»، أجبتُ على سؤال السيدة «لين» الصامت الذي كان يظهر في عينَيها.

«ولا يملك أيُّ شخصٍ فكرة عن مكانها».

أُشيحُ مرةً أخرى عن عرضها لتقديم الغداء لي، على الرغم من أن وقت الشاي قد اقترب.

اتَّجهتُ لأعلى لجناح نوم أُمي. وقفتُ في الطرقة مُفكرة؛ أمي تُبقي باب جناحها مُسكّرًا لتُجنِّب السيدة «لين» عناء ترتيب غرفتها؛ فقد كانت تنظف غرفتها بنفسها، وبالكاد كانت تسمح لأي شخصٍ بالدخول، ولكن في تلك الظروف...

قرَّرتُ أن أمضي قدمًا. عندما وضعت يدي على مقبض الباب توقَّعت أن يكون مُسكّرًا وأن أطلُب

مـن السـيدة «لـين» البحـث عـن المفتـاح، ولكـنَّ المقبـض دار في قبضـتي، وفُتـح البـاب. عرفـتُ في لحظتهـا أنَّ كل شيءٍ قـد تغـيَّر. وأنـا أنظُـر في صمـتٍ لغرفـة أمـي الخاليـة، شـعرتُ وكأني في مـكان عبـادة أكـثر ممَّـا لـو كنـتُ في كنيسـة الآن. كنـت قـد قـرأتُ كتـب أبي عـن المنطـق، وقـرأت لمالثـوث وداروين، ومثـل أبـويَّ كنـتُ أومـن بوجهـات النظـر العقلانيـة والعلميـة، ولكـنَّ وجـودي في غرفـة أمـي جعلَـني أشـعُر أنَّـني أريـد التصديـق بـشيءٍ مـا، في الـرُّوح ربمـا.

صنعَـتْ أُمـي مـن تلـك الغرفـة مِحرابًـا فنيًّـا، زُيِّنـت النوافـذ بلوحـاتٍ مـن الحريـر اليابـاني بنقـش اللوتـس، مالـت للخلـف لتُـضيء عـلى الأثـاث الرشـيق المصنـوع مـن خشـب القيقـب الـذي نُحـت ليُماثـل الخـيزران، يختلـف تمامًـا عـن الماهوجـني القاتـم الضخـم، الـذي فُـرِدَ بالأسـفل.

في الأسـفل كان كل الخشـب قـد تـمَّ تلميعـه، وغُطِّيـت النوافـذ بسـتائر ثقيلـة، ومـن عـلى الجـدران حدَّقَـت بنـا الصـور الزيتيـة القاتمـة لأسـلافنا، ولكـن هنـا وفي عالَـم أُمـي كان الخشـب مَطليًّـا باللـون الأبيـض. وعـلى الجـدران الباسـتيل عُلِّقـت مئـات مـن الزهـور المرسـومة بألـوان المـاء؛ كلُّ صـورةٍ لا يزيـد

حجمها على ورقة كتابة مؤطَّرة بخفَّة. للحظةٍ شعرتُ أن أمي هنا في الغرفة، وكأنها كانت هنا طوال الوقت.

بنعومةٍ وكأني أخاف أن أُزعِجها، تحرَّكتُ على أطراف أصابعي للغرفة التالية. الاستوديو الخاص بها. كانت غرفة عادية بها نوافذ مكشوفة من أجل دخول الضوء. وأرضية بلُّوط عارية لسهولة التنظيف. أمسح بعينيَّ الحامل وطاولة الرسم، ورفوف الورق واللوازم. جذب نظري صندوق خشبي فعقدتُ حاجبيَّ؛ أينما تذهب أُمي فهي دائمًا تأخذ معها مجموعة ألوانها المائية، ولكني افترضتُ... يا لغبائي! كان عليَّ أن أبحث هنا أولًا. هي لم تخرُج لتدرُس الزهور إطلاقًا، لقد ذهبت لمكانٍ ما لسببٍ ما، ولكني لا أعرِف كيف ظننتُ أني سأستطيع أن أجِدَها بنفسي. كنتُ غبية.. غبية.. غبية. خطواتي الآن ثقيلة، عبرتُ الباب التالي لأصِل إلى غرفة نوم أُمي، ثم توقَّفتُ مذهولةً لعدة أسباب.

أولًا فراشها النحاسي كان في حالة فوضى، كلُّ نهارٍ مرَّ عليَّ في حياتي كانت أمي تتأكد أنَّ فراشي قد تمَّ إعداده بعد الإفطار، بالتأكيد ما كانت لتترُك فراشها

والملاءات مُلقاة بمثل هذا الشكل والوسادات قد خرجت من أكياسها، ومُلقاة على السفرة الفارسية.

والأكثر من ذلك فإنَّ ملابسها لم تكن مُرتَّبة وفي مكانها تثُّورة الخروج البُنيَّة خاصَّتها كانت مُلقاة بإهمالٍ فوق المرآة. ولكن إن لم تكن ترتدي ملابسها المُعتادة مع التثُّورة التي ترفع حتى وسطها كي لا تتَّسخ، ولكن يسهُل إسدالها سريعًا في حال ظهور أي رجلٍ، وهي أكثر ملابسها عمليَّةً، فما الذي ترتديه الآن؟

أفتح الستائر المخمليَّة لأسمح بدخول الضوء من النوافذ، فتحتُ أبواب خزانة الملابس ثم وقفتُ محاوِلةً أن أفهمَ خليط الملابس المُتكدِّسة؛ صوف على شاش على قطن، وقطن دمشقي أيضًا وحرير وتُلٌّ ومخمل. كانت أُمي كما ترَون مفكرةً حُرَّة وكانت لها شخصية مُميزة مناصِرة لحقوق المرأة، وداعية لحُرية وتجديد ملابس النساء كالعباءات الناعمة التي باعها لها روسكن، ولكنها بالرغم من ذلك كانت لا تزال أرملةً لرجلٍ ذي شأنٍ سواء أعجبَها ذلك أم لا، ويقع عليها بعض الواجبات التي تحتاج أزياءً أكثر رسمية. فتجِد الفساتين وأردية العشاء مُنخفضة العُنق وعباءة الأوبرا، وثوب الحفلات

ذا اللـون الأرجـواني الـذي ارتدَتْـه أُمِّـي لسـنواتٍ ولـم تهتـمَّ إذا كان مـا يـزال يُعتبر مـن الموضـة الرائجـة أم لا، ولـم تكـن تتخلَّـص مـن أي شيء.

كان هنـاك أيضًـا رداء الأرامـل الأسـود الـذي ظلَّـت ترتديـه لمـدة عـام بعـد وفـاة والـدي، وكان هنـاك رداء الصيـد الأخـضر البرونـزي المُتبقِّـي مـن أيـام خروجهـا لصيـد الثعالـب، وكان هنـاك زِيُّهـا الرمـادي الخـاص برحلاتهـا للمدينـة، وعبـاءات الفَـرو وسُـترات السِّـتان المُبطَّنـة، والتنانـير المزركشـة، وبلـوزات عـلى بلـوزات، لـم أتمكَّـن مـن تحديـد مـا الـذي يمكـن أن يكـون ناقصًـا مـن تلـك المتاهة مـن البنفسـج والمارون والرمـادي والأزرق والزيتـوني والأسـود والعنـبر والبُـني. أغلقـتُ أبـواب خزانـة الملابـس ووقفـتُ حائـرة أنظـر مـن حـولي للغرفـة الـتي كانـت في حالـة مـن الفـوضى. نِصفَـا المِشَـدِّ وبعـضٌ مـن الملابـس الداخليـة كانـت مُلقـاةً عـلى مـرأى مـن مـكاني عـلى الأرضيـة الرخاميـة في الحمـام، وعـلى طاولـة الزينـة كان هنـاك غـرَض غريـب يبـدو كوسـادةٍ ولكـن وكأنهـا مصنوعـة مـن لفائـف زُنبركيـة كأنـه مصنـوع مـن الأنابيـب والخيـش. تناولـتُ ذلـك الـشيء الغريـب دون أن أتمكَّـن مـن فـكِّ طبيعتـه، حملتُـه معـي وأنـا في طريقـي للخـروج مـن

غرفـة أمـي. في ردهـة الطابـق السُّـفلي قابلـتُ السـيد «لـين» وهـو يُلمِّـع الخشـب، وعرضـتُ عليـه مـا وجـدتُ سـائلة: «لـين» مـا هـذا؟

كونـه خادمًـا مُحترفًـا فقـد بـذل قصـارى جهـده كي لا تظهـر أيُّ تعبـيراتٍ عـلى وجهـه، ورغـم ذلـك فقـد تلعثَـم قليـلًا وهـو يقـول: آاا.. آاا.. إنَّ هـذا مُحسِّـن للـ.. ثـوب يـا سـيدة.. يـا آنسـة «إينـولا».

مُحسِّـن ثـوب! بالتأكيـد ليـس للجهـة الأماميـة، لا بـدَّ أنَّ ارتـداءه يكـون عـلى الظهـر.

وفجـأة اسـتوعبتُ أنـني أُمسـك في يـدي في حضـور رجـلٍ الغـرَض الـذي يُوضَـع في حشـوة أرداف الفسـتان ليُبقِيَـه مفـرودًا ويدعـم الثَّنيـات. صرخـتُ فجـأة: أسـتميحك عـذرًا.

وأنـا أشـعُر بوجنـتيَّ تشـتعلان مـن الخجـل؛ لـم تكـن لـديَّ فكـرة، لـم أكـن أعـرف.

لـم أرتـدِ حشـو أرداف مـن قبـل، لـذا لـم أرَ ذلـك الـشيء أبـدًا.

- أُقدِّم لك ألف اعتذار.

وفجـأةً ألحَّـت فكـرة جعلتـني أتغلَّـب عـلى إحراجـي لأسـأل: «لـين» مـا نوعيـة الملابـس الـتي كانـت أمـي

ترتديها حين غادرت المنزل صباح أمس؟

- من الصعب عليَّ أن أتذكَّر يا آنستي.

- هل كانت تحمل أي نوع من الأمتعة أو الطرود؟

- في الواقع لا يا آنستي.

- ولا حتى حقيبة يدٍ صغيرة؟

- لا يا آنستي.

كان من النادر أن تحمِل أُمي أي شيء من هذا النوع.

- أعتقد أنني كنتُ سألاحظ لو كانت تحمل أي شيء.

- هل كانت ترتدي زيًّا يحتوي على أهـ...

لم أستطع تمامًا أن أستخدِم كلمة حشو أرداف وأنا أتحدَّث إلى رجل.

- به بطانة؟ حشوة؟

لم يكن هذا من عاداتها، فبمجرَّد أن سألتُ بدأت ذكرى ترتسِم في عينيَّ ليهزَّ رأسَه قائلًا: لا يُمكنني أن أتذكَّر ملابسها بالضبط يا آنسة «إينولا»، ولكني أتذكَّر أنها كانت ترتدي رداءً منفوخًا من

الخلـف.

نفـس نوعيـة الملابـس الـتي تحتاج لحشـو الأرداف، وأكمـل قائـلا: وقُبعتهـا الرماديـة الطويلة.

كنـت أعـرف تلـك القبعـة، كانـت تُعطـي مظهـرًا عسـكريًّا وكأنهـا وعـاء زهـور مقلـوب كان المُتبذِّلـون يُسـمُّونها ثلاثـة طوابـق وقبـو.

- وحملتْ مظلة المشي خاصَّتها.

كانـت أداة طويلـة سـوداء تُسـتخدَم كعصـا مـشي، وكانـت قويـة كعصيـان الرجـال.

كـم هـو غريـب أن تخـرج أُمـي بمظلـةٍ رجوليـة وقُبعـة رجوليـة، ومـع ذلـك ترتـدي فسـتانًا ذا خلفيـة أنثويـة جـدًّا.

الفصل الثالث

قبل العشاء بقليل جاء صبي بِرَدٍّ من أخويَّ:

نصِل في أول قطار لتشيسوريليا صباحًا – نقطة –
برجاء مُلاقاتي في المحطة – نقطة –
إم وإس هولمز

تشيسوريليا كانت أقرب مدينة بها محطة سكة حديد، وكانت تبعُد عشرة أميال خلف كينفورد، كي أصل قبل ذلك القطار الباكر كان عليَّ التحرك عند الفجر.

استعدادًا لذلك استحممتُ في المساء، وكان ذلك شيئًا مُزعجًا، وأنا أسحب الحوض المعدني من تحت السرير وأضعه أمام الموقد وأحمِل دلاء المياه للطابق العلوي لأملأه، ثُم غلي المياه وحمل غلَّايات المياه لأعلى كي أصُبَّها من أجل الدفء. لم تساعدني السيدة «لين» في إشعال بعض النيران داخل حجرتي للحفاظ على الدفء

بالرغم من كونها في فصل الصيف. فقد أُصيبت بروماتيزم مفاجئ في ذراعيها لذا لم أتمكن من غسل شعري دون مساعدتها.

اتَّجهتُ للفراش مباشرة بعد الاستحمام، ووضعت السيدة «لين» زجاجات من الماء الساخن تحت قدميَّ.

في الصباح قمتُ بتمشيط شعري مائة مرة محاوِلةً أن أجعله أكثر لمعانًا، ثم ربطتُه بشريطٍ أبيض يتناسب مع الرداء الأبيض الذي ترتديه الفتيات الارستقراطيات ووجَبَ عليَّ ارتداؤه. أنتم تعلمون، من أجل أن تظهر كُلُّ بقعة تراب ممكنة ارتديتُ أجدَدَ فستانٍ لديَّ مع بنطال دانتيل أبيض لطيف تحته وجوارب سوداء تقليدية مع حذاء أسود لمَّعتْه لي السيدة «لين».

بعد تضييع الكثير من الوقت في ارتداء الملابس في تلك الساعة المُبكرة لم يكن لدي وقتٌ كافٍ لتناول الإفطار.

خطفت شالًا من على الرف الموجود في الردهة حيث إنه كان صباحًا باردًا جدًّا، وانطلقتُ على درَّاجتي أُبدِّل بقوة كي أصل في موعدي.

كان ركوب الدراجات يسمح للمرء أن يُفكر دون أن يخشى أن يلحظ أحدُهم تعابير وجهه.

كان في ذلك راحة ولكن بالكاد أستطيع أن أقول إني مرتاحة وأنا أفكر في الأحداث الأخيرة وأنا أُسرع عبر كينفورد لآخُذ طريق تشيسورليا، أتساءل ما الذي حدث لأمي محاوِلةً ألَّا أطيل التفكير في ذلك، تساءلتُ إن كنتُ سأجد صعوبة في العثور في محطة السكة الحديدية على أخويَّ. أتساءل عن تسمية أُمي لأخويّ مايكروفت وشيرلوك إلى الوراء تهجِّي أسمائهم «كولراش» و«تفوركيام».

أتساءل لو كانت أمي بخير. «فكِّري في مايكروفت وشيرلوك» عندها أتساءل هل سأستطيع التعرُّف عليهما في محطة القطار؟

فأنا لم أرهُما منذ أن كنتُ في الرابعة من عمري في جنازة أبي، جُلُّ ما أتذكَّره أنهما كانا يبدوَان فارِهَي الطول بقُبَّعتيهما الطويلتَين. وسترتيهما الطويلتَين السوداوين، وقفازاتهما السوداء، والأشرطة السوداء المربوطة على أكتافهما، وأحذيتهم الجلديَّة السوداء اللامعة. أتساءل لو كان رحيل أبي كان ناتجًا من وجودي المُخزي، كما كان يُخبرني أطفال القرية، أم أنه حقًّا لم يحتمِل الحُمَّى والتهاب

الجنبة كما كانت تُخبرني أمِّي. أتساءل لو كان أخوايَ سيستطيعان التعرُّف عليَّ بعد مرور عشر سنوات. لماذا لم يَزورانا أنا وأمي، ولماذا لم نزُرْهما؟ بالطبع كنتُ أعرف أنه بسبب العار الذي ألحقتُهُ على عائلتي، بكوني وُلِدتُ.

لم يكن من المناسب لأخويَّ أن تربطهما أي صلةٍ بنا؛ مايكروفت كان رجلًا مهمًّا مشغولًا يعمل في جهةٍ حكومية هامة في لندن، وأخي شيرلوك كان مُحققًا شهيرًا.

هناك كتاب قد كُتب عنه بعنوان «دراسة في القرمزي»، كتبَه صديقه وزميله دكتور «جون واطسون»، أُمي قد ابتاعت نُسخة -لا تفكري في أُمي- قرأتها كِلتانا، ومن وقتها وأنا أحلُم بلندن.. الميناء العظيم.. مقر الملكية، ومركز المجتمع الراقي، ولكن بالرغم من ذلك -وفقًا لما يقوله دكتور واطسون- فهي تلك البالوعة العظيمة التي ينجذِب إليها المُتسكِّعون والعاطِلون في الإمبراطورية. لندن حيث الرجال بربطات العنق البيضاء، والنساء المرصَّعات بالماس، يحضرون حفلات الأوبرا، بينما في الشوارع سائقو الحناطير قُساة القلوب يدفعون الخيول للعمل حتى حافة

الهلاك وفقًا لكاتبٍ مُفضَّل آخَر لي في كتاب جمال الأسود.

لندن حيث طالبو العِلم يقرءون في المتحف البريطاني وتتجمهر الحشود في المسارح ليذهلوا.. لندن حيث المشاهير يعقدون جلسات تحضير الأرواح، ليتواصلوا مع الموتى، بينما يحاول مشاهير آخرون أن يُفسِّروا علميًّا كيف تمكَّن مُحضِّر الأرواح الطفو بجسده ليخرج من النافذة ليدخل في عربةٍ كانت في انتظاره.

لندن حيث الأولاد المُشرَّدون يرتدون الأثمال البالية، وينتشرون في الشوارع لا يذهبون إلى المدرسة أبدًا.

لندن حيث الأشرار يقتلون سيدات الليل -لم يكن لدي فكرة واضحة عمن يكنَّ سيدات الليل بالضبط- ويأخذون أطفالهنَّ ليبيعوهم للعبودية.

في لندن حيث الملكية والبلطجية.. في لندن حيث المُوسيقيون العظام والفنانون العظام والمجرمون العظام أيضًا الذين يخطفون الأطفال ويُجبرونهم على العمل في أوكار الإثم -لم يكن لديَّ فكرة واضحة عماذا تكون تلك الأوكار أيضًا- ولكني أعرف أن أخي شيرلوك كانت الأسرة الملكية تُوظِّفه في

بعض الأحيان ليخترق تلك الأوكار، مُجابهًا بذكائه أولئك البلطجية واللصوص وأمراء الجريمة.

أخي شيرلوك كان بطلًا.

تذكرتُ دكتور واطسون وهو يُعَدِّد إنجازات أخي؛ مُثقَّف، كيميائي، عازف كمان متمكن، قنَّاص لا يُشقُّ له غبار، مُبارز، متمرِّس في التحطيب، ملاكم، ومُفكر استنتاجي على غير العادة.

صنعتُ قائمة بإنجازاتي الخاصة في عقلي، أستطيع القراءة، أستطيع الكتابة، أستطيع الحساب، أجد أعشاش الطيور، أُخرج الديدان من الأرض، أصطاد السمك.. ماذا أيضًا؟ نعم بالطبع.. أستطيع قيادة الدراجة.

كانت المقارنة تُصيبني بالكآبة فتوقَّفت عن التفكير، وصببتُ كامل تركيزي على الطريق، وكنتُ قد اقتربتُ من حدود «تشيسورليا».

أهابتني الحشود في الشوارع المرصوفة بالحصى، كان عليَّ أن أشقَّ طريقي بين الأشخاص والمركبات التي لا تُشبه شيئًا كطُرق «كينفورد» الترابية.

كان هناك رجال يبيعون الفاكهة، على العربات المدفوعة باليد، ونساء يبعنَ الحلوى في سلال،

ومُربيات يدفعنَ عربات الأطفال، والكثير من المارة يحاولون ألا يُدهَسوا بالعربات.

كان هناك الكثير من العربات؛ عربات فحم، عربات حطب، وعربات كبيرة يسحبُها ما لا يقلُّ عن أربعة خيول، وسط كل ذلك الزحام كيف سأتمكَّن من العثور على محطة القطار؟!

لحظة.. لقد رأيتُ شيئًا يظهر من فوق قمَّة المنازل مثل ريشٍ على قُبَّعة سيدة.

كان هناك عمود بُخاري أبيض يشقُّ السماء الرمادية.. دخان القاطرة البخارية.. تحركتُ تجاهه، وبعدَها بلحظاتٍ سمعت صوت المحرك يصل إلى المنصَّة، وكنتُ قد وصلت في الوقت نفسه.

فقط بضعة ركَّاب ترجَّلوا ولم أجد صعوبة في التعرُّف على الاثنين فارِهَي الطول القادمَين من لندن، بالتأكيد لا بدَّ أنهما أخواي.

كانا يرتديان ملابس ريفية؛ البدلات الداكنة ذات الحواف المُضفَّرة، وربطات عنق خفيفة، وقُبعات سوداء مُستديرة، وقفازات خفيفة. فقط النبلاء هم من يرتدون قفازات في ذلك الوقت من الصيف.

واحد من أشقائي كان زائدًا في الوزن، وقد ظهرت

تلـك الزيـادة في وسـطه، لا بـدَّ أن هـذا مايكروفـت، الأكـبر بسـبع سـنوات، الآخـر «شـيرلوك» كان يقِـف بشـكلٍ مسـتقيم، وبـدا في بذلتـه الـتي كانـت بلـون الفحـم، وحذائـه الأسـود ككلـب صَيـد.

كانـا يلوِّحـان بِعَصَـوَي المـشي الخاصتـين بهمـا، ويتلفَّتـان مـن جانـبٍ إلى جانـب باحثـين عـن شيءٍ مـا، ولكـن كانـت نظراتهمـا تمـرُّ مـن فـوقي مبـاشرة.

وفي الوقـت نفسـه كان كل مـن يقِـف عـلى المحطـة يختلـس النظـرات إليهمـا. انزعجـتُ مـن نفـسي أني شـعرتُ أنَّـني أرتجـف وأنـا أنـزل مـن فـوق درَّاجـتي، شريـط مـن الدانتيـل مـن بنطـالي انشـبَكَ في سلسـلة الدرَّاجـة، ليتمـزَّق مُتدلِّيًـا فـوق حـذائي الأيـسر، وحـين أحـاول إصلاحـه أُسـقِط شـالي.

يجـب أن أهـدأ، آخُـذ نفسًـا عميقًـا، وأتـرك شـالي عـلى الدراجـة وأريـح الدرَّاجـة عـلى حائـط المحطـة.

أقـترِب مـن الرجُلـين دون أن أنجـحَ تمامًـا في رفـع رأسي: آ.. سـيد هولمـز؟

أسأل..

- آ.. وآاااا سيد هولمز؟

زوجـين مـن العيـون الرماديـة الحـادَّة يصـيرون

مُثبَّتِين عليَّ، وزوجين من الحواجب الأرستقراطية تصير مرفوعة.

أقول: طلبتَ منِّي أن أقابلكما هنا؟

- إينولا؟

ليقول كلاهما في الوقت نفسه في استعجاب، ثم تغيَّرت لهجتهما في سرعة: ما الذي تفعلينه هنا؟ لماذا لم تُرسلي عربةً لاصطحابنا؟

- كان من المُفترَض أن نعرِفها على الفور، فهي تُشبهك حقًّا يا «شيرلوك».

إذن فإني كنتُ مُحقَّة.. إني كنتُ مُحقَّة.. الأكثر طولًا، ذو الجسد الرشيق كان «شيرلوك». أحببتُ وجهه النحيل، وعينَيه الحادَّتَين كالصقر، وأنفه الذي يبدو كمنقار. ولكني شعرتُ أن كون أحدهم يُخبرني أني أشبهه فهي ليست بمُجاملة.

- ظننتُها إحدى الأطفال المشرَّدين.

- طفل مُشرَّد على دراجة؟

- لماذا درَّاجة؟ أين العربة يا «إينولا»؟

رَفَفتُ بجفنيّ متسائلة: العربة؟

كان هناك عربة من طراز لاندو، وعربة فتون، تجمعان الغبار في المنزل، ولكن لم نكن نملك أيَّ

خيـولٍ منـذ عـدة سـنوات. ليـس منـذ أن توقَّفـت أمـي عـن الصيـد.

قلـتُ ببـطء: أعتقـد أنـه كان مـن الممكـن أن أسـتأجِر بعـض الخيـول، ولكـني لـم أكـن لأسـتطيع أن.. أقودهـا؟

قـال الشـحيم مايكروفـت مُسـتعجبًا: ولمـاذا تفعلـين هـذا بنفسـك؟ فنحـن ندفـع لفـتى الإسـطبل، وراعـي الخيـل.

- أستميحك عذرًا؟

- هل تحاولين إخباري أنه لا توجَد خيول؟

- فيما بعدُ يا مايكروفت.. فيما بعد.. أنت.

بأريحيـة اسـتدعى شـيرلوك حمَّـالًا وقـال لـه: احـضِر لنـا عربـة أجـرة.

وألقـى بعملـةٍ للصـبي، الـذي وضـع يـدَه عـلى قبَّعتـه وانطلـق لتنفيـذ طلـب «شـيرلوك».

قـال مايكروفـت: من الأفضـل أن ننتظـر في الداخل. ففـي تلـك الريـح شـعْر «إينـولا» يبـدو كعـشٍّ غـراب. أيـن قبَّعتـك يـا إينـولا؟

في تلـك اللحظـة كان الوقـت قـد تأخَّـر عـلى أن أقـول لهمـا كيـف حالُكمـا أو مِـن الرائـع رؤيتكمـا مـرةً

أخرى يا عزيزيَّ والمُصافحة. بالرغم من أنَّني كنتُ عار العائلة. ووقتها أيضًا بدأتُ أستوعب أنَّ «برجاء المقابلة في المحطة» كان طلب توفير وسيلة نقل، وليس طلبًا لتواجدي شخصيًّا.

حسنًا إذا كانا لم يرغبا في الاستمتاع بمُحادثتي فإنَّ ذلك شيء جيد.

وقفتُ صامتةً وغبية.

- وأين قفازاتك؟

أضاف «شيرلوك» وهو يأخُذ بذراعي ويُوجِّهني ناحية المحطة.

- أو أي ملابس مناسبة؟ أنتِ آنسة الآن يا «إينولا».

تلك الملاحظة جذبتْني للمحادثة لأقول: لقد أتممتُ الرابعة عشرة فقط.

قال مايكروفت في لهجةٍ حائرة: ولكنَّني كنتُ أدفع للخيَّاطة!

قاطعه «شيرلوك» قائلًا: كان يجِب عليك أن ترتدي التنانير الطويلة منذ أن أتممتِ الثانية عشرة. ما الذي تفكر فيه أمك؟! يبدو أنها تأثرت كثيرًا بالأفكار النَّسوية.

قلت: أنا لا أعرف أين ذهبت.

وانفجرتُ لدهشتي في البكاء.

لـم يـأتِ أي ذِكـر لأُمـي مـرةً أخـرى حـتى جلسـنا في المركبـة الـتي اسـتأجرناها، وقـد ربطنـا الدراجـة في مؤخِّـرة العربـة، وتحرَّكنـا في اتجـاه «كينفـورد».

في وقـتٍ مـا خـلال الرحلـة قـال «شـيرلوك» لمايكروفـت: نحـن زوج من عديمي التفكير الغاشـمين.

وهـو يُعطيـني محرمـةً كبـيرة مليئـة بالتطريـزات حتى أنهـا آذت أنفـي. أنـا مُتأكِّـدة أنهمـا يعتقـدان أنَّـني أبـكي مـن أجـل أُمـي، ولكـني في الحقيقـة كنـتُ أبـكي مـن أجـل نفـسي.

«إينولا .. ألون Alone»

«إينولا وحيدة».

جلـس أخـواي كتفًـا بكتـفٍ في المقعـد المقابـل لي. ولكنهمـا كانـا ينظُـران إلى أي شيءٍ سـواي. كان مـن الواضـح أنهمـا وجـداني مَدعـاةً للخجـل. توقَّفـت عـن التشـنيف بعـد دقائـق مـن ابتعادِنـا عـن محطـة القطـار.

ولكـني لـم أسـتطع التفكـير في أي شيءٍ أقولـه. كانـت العربـة مجـرد صنـدوق ذي عجـلات ونوافـذ

لا يُشجع أبدًا على بدء محادثة، بالرغم من أنَّني وددتُ الإشارة إلى جمال الطبيعة، ولكني لن أفعل بالتأكيد.

- إينولا.

جاء صوت مايكروفت رخيمًا بعد برهة.

- أتشعُرين بتحسُّنٍ كافٍ لتُخبرينا عمَّا حدث؟

كنتُ قد شعرت بتحسُّن بالفعل، ولكن لم يكن هناك الكثير لأضيفه عما يعرفونه بالفعل. أمي تركتِ المنزل في صباح الثلاثاء باكرًا ولم تعُد منذ ذلك الوقت.

لا.. لم تترُك لي أي رسالة لتوضيح الأمر، لا.. لا يوجد سبب يجعلني أفكر أنها كانت مريضة، فقد كانت في صحَّة ممتازة. لا.. لم يأتِ أيُّ خبرٍ من أي شخص، «لا» كانت هي الإجابة على أسئلة شيرلوك كلها. لم يكن آثار دماء، ولا آثار خطوات، ولا آثار اقتحام، ولم أعلم أيَّ شيءٍ عن أي غرباء قد يكونون يتجوَّلون في الأنحاء.

لا.. لم يكن هناك أي مطالبة بفِدية، لو كان لأمي أيُّ أعداء فأنا لا أعرف عنهم شيئًا، ونعم.. قدَّمتُ بلاغًا لمركز شرطة «كينفورد».

- يُمكنني أن أرى.

ألقى شيرلوك بملاحظةٍ وهو ينحني للأمام لينظُر من نافذة العربة ونحن نمرُّ بحديقة «فرنديل»، حيث إنهم مع كل المُستفيدين في القرية وكل الباحثين في القرية يبحثون عنها بأقل الطُّرق فاعلية، مُنطلقين بين الأشجار، هل يتوقَّعون أن يجدوها مُختبئة تحت الزعرور.

مال مايكروفت للأمام لينظُر بدوره، ارتفع حاجباه الكثَّان ليصلا إلى حافة قُبعته، وهو يصرخ سائلًا: ما الذي حدث للأراضي؟

مشدوهةً اعترضتُ قائلة: لا شيء.

- بالطبع، لا شيء تمامًا. هذا واضح. يبدو أنه منذ سنوات أيضًا لا شيء يحدُث. كل المزروعات مُفرِطة في النمو!

غمغم شيرلوك: مُثير للاهتمام.

ردَّ مايكروفت بحسم: همجية. فالمزروعات طولها يصل إلى قدم. والشتلات تنبُت والشجيرات الناعمة.

- هذه زهور برية.

كنتُ أحبُّها!

- ينمو على ما يُفترَض أن يكون الباحة الأمامية. كيف بحق السماء نعطي للبستاني أجره.

- بستاني؟ لا يوجد بستاني.

التفت لي مايكروفت كصقرٍ مُنقض: ولكن لديكم بستاني، اسمُه «راجلز». أدفع له ١٢ شيلنًا كل أسبوع منذ عشر سنوات.

جلستُ مشدوهةً فاغرة الفاه لعدة أسباب؛ كيف كان مايكروفت تحت هذا الوهم أنَّنا لدينا بستاني، أنا لا أعرف أيَّ شخصٍ يُدعى «راجلز» والأكثر من ذلك أنا لا أعرف أنَّ هناك أي أموال تأتي من مايكروفت. أعتقد أنَّني كنتُ أفترض أن الأموال مثل الدرج والنجف وباقي الأثاث تأتي مع العزبة.

تدخَّل شيرلوك: مايكروفت، لو كان هناك شخص بهذا الاسم من ضِمن العمَّال فأنا متأكد أن إينولا كانت لا تعرِف به.

- هي لم تعرِف حتى...

قاطعَه شيرلوك مُتحدثًا إليَّ: إينولا لا تهتمِّي، مايكروفت يختفي حسُّ دُعابته حين يخرُج من مداره المعتاد ما بين غُرَفِه ومكتبه ونادي

الديوجينز.

متجاهلًا إيَّاه انحنى أخوه ناحيتي للأمام مُطالبًا: إينولا أخبريني، هل حقًّا لا توجَد أحصنة؟ ولا راعي إسطبل؟ ولا فتى إسطبل؟

- لا، أعني نعم.. لا يوجد.

- أيهم.. نعم أم لا؟

- مايكروفت.

قاطعَه شيرلوك: رأس تلك الفتاة كما تلاحظ ما يزال صغيرًا مقارنة بجسدها الطويل. فاترُكْها وحدَها لا حاجة لإرباكها وإزعاجها، بينما ستتمكن من اكتشاف كلِّ شيء بنفسك قريبًا.

وفي تلك اللحظة بالذات توقفتِ العربة أمام عزبة «فرنديل».

الفصل الرابع

أدخل إلى غرَف أُمي مع أخويَّ، ألاحظ على منضدة الشاي زُهرية يابانية بداخلها ورود، بتَلاتها تحوَّلت إلى اللون البني، لا بدَّ أن أمي قد أحضرت تلك الأزهار قبل اختفائها بيوم أو اثنين.

رفعتُ الزُّهرية واحتضنتُها إلى صدري، مرَّ شيرلوك هولمز بجانبي، كان قد صدَّ ترحيب السيد «لين» ورفض عرض السيدة «لين» لكوبٍ من الشاي. رفض تمامًا أن يقِف للحظةٍ قبل أن يبدأ تحقيقه.

مُتأمِّلًا غرفة الجلوس المليئة برسومات الزهور بألوان الماء، انتقل منها إلى غرفة الاستوديو، ثم إلى غرفة النوم.

هناك سمعتُه يتعجَّب بصوتٍ عالٍ: ما هذا؟

ينادي مايكروفت الذي كان يتحرك ببطءٍ أكثر بعد أن تحدَّث مع السيد «لين» للحظات، ثم ترك له عصاه وقُبَّعته وقفازه.

- شيء مُحزن.

جـاء صـوت شـيرلوك عاليًـا مـن نهايـة الغرفـة مُشيرًا في الأغلب إلى الفوضى العامة وتناثُر الملابس الداخليـة.

- غير لائق.

نعـم، بالتأكيـد.. ذلـك بخصـوص الملابـس الداخليـة.

خارجًـا في سرعـةٍ مـن غرفة النـوم ظهر في الاسـتوديو وهـو يقـول: يبـدو أنها غـادرت بسرعـةٍ كبيرة.

يبدو.. فكرت.

- أو ربمـا قـد أصبحـت أقـلَّ اهتمامًـا في عاداتهـا الشـخصية.

قالهـا بنـبرةٍ أَهـدأ. فهـي رغـم كل شيءٍ في الرابعـة والسـتين مـن عمرهـا.

كانـت الزهريـة الـتي بـين ذراعَـيَّ تبعـث بشـذًى برائحـة مـن الميـاه الراكـدة والجـذور المُتحللـة، بالتأكيـد تلـك الزهـور حـين كانـت يانعـةً كانـت تبعـث برائحـةٍ رائعـة.

تلـك الأزهـار الذابلـة الـتي رأيتهـا كانـت أزهـار بسـلَّة، وقسـوان.

قلت مُستعجبة: قسوان وبسلة.. غريب.

كِلا الرجُلين وجَّها عينيهما ناحيتي بقليلٍ من السُّخط.

- والدتك كانت غريبة! والدتك كانت غريبة.

قال شيرلوك باختصار:

- ولا تزال.

أضاف مايكروفت برفق وهو يوجِّه نظرات عتاب ولوم لأخيه: إذن فهماً أيضًا يخافان أن تكون.. ماتت.

باللهجة الحادة نفسها قال شيرلوك: من الوضع الذي أراه هنا فيبدو أنها قد تطوَّرت من الغرابة إلى خرَف الشيخوخة.

بطلٌ أم لا، كانت طريقتُه بدأت تُزعجني، وتضغط على أعصابي. إنَّ أُمي كانت أمَّهُ أيضًا، كيف يُمكنه أن يكون بهذا البرود؟!

لم أكن أعرف حينها، فلم تكن هناك أي طريقة لأعرف أن شيرلوك هولمز عاش حياته في نوعٍ من الظل البارد، كان يُعاني من الاكتئاب، وكانت أعراضه تزداد في بعض الأحيان بشكلٍ كبير لأسبوعٍ أو أكثر حتى أنه يرفض الخروج من فراشه.

- الخرَف؟

يتساءل مايكروفت.

- ألم تستطع الوصول إلى استنتاجٍ أكثر فائدة؟

- مثل ماذا؟

- أنت المُحقِّق.. فلتُخرج عدساتك، وتُحقِّق.

- لقد فعلت. لا يوجد شيء يمكن أن يُفيدنا هنا.

- في الخارج إذن.

- بعد يومٍ كامل من الأمطار؟ لن يكون هناك أي دلائل تُخبرنا بأي طريقٍ ذهبت.. امرأة حمقاء.

خرجتُ وقد هالتْني نبرتُه وتعليقه وأنا أحمل الزُّهرية بداخلها الزهور الذابلة للأسفل إلى المطبخ.

هناك وجدتُ السيدة «لين» مُنكفئة على الأرض وفي يدِها فُرشة تنظيف تفرك ألواح البلوط الخشبية بعنف شديد حتى اعتقدتُ أنها قد فقدت عقلها.

أفرغتُ محتويات المزهريَّة اليابانية في دلوٍ خشبي مائل موضوع على منصة تقشير الخضراوات.

وهي ما تزال على يدَيها ورُكبتيها تحدَّثَت السيدة «لين» للأرضية قائلة: وأنا التي كنتُ أنتظر لأرى السيد مايكروفت والسيد شيرلوك مرةً أخرى.

وضعتُ المزهرية الخضراء في الحوض الخشبي

المُبطَّـن بالرصـاص وأجريـتُ الميـاه عليـه مـن الصنبـور، والسـيدة لـين تُكمـل حديثها للأرضيـة: وككل مـرةٍ نفـس الخلافـات الحمقـاء، ولا يوجـد لديهمـا أي كلمـاتٍ طيبـة لأُمِّهمـا، بينمـا هـي ربمـا ترقُـد في مـكان مـا...

تحشرَج صوتها فجأة، وأنا لم أقُل شيئًا.

فلم أرغب بإزعاجها أكثر من ذلك.

مـا بـين كحْـتِ الأرضيـة والتشـنيف أعلنـتِ السـيدة «لـين»: مـن غـير المُسـتغرَب أنهمـا مـا يـزالان أعزبَـين. يجـب أن يتـمَّ كل شيءٍ عـلى طريقتهمـا، مُعتقدَيـن أنَّ ذلـك حقُّهمـا. لا يمكنهمـا أبـدًا أن يفهمـا أو يسـمعا لامـرأةٍ ذاتِ فكـرٍ مُسـتقل.

دقَّ الجـرس، واحـد مـن عـددٍ مـن الأجـراس المُعلقة عـلى سـلك نحـاسي مُمتـد فـوق الموقد.

- ذلـك جـرس الغرفـة الصباحيـة، أفـترض أنهـم يريـدون الغـداء، وأنـا غارقـة في القـذارة حـتى منكـبيَّ هـا هنـا.

كَـوني لـم أتنـاول أي إفطـار، كنـتُ أريـد غـداءً أنـا الأخـرى، وأيضًـا أردتُ معرفـة مـا الـذي يحـدُث. تركـتُ المطبـخ واتَّجهـتُ نحـو غرفـة الصبـاح.

في الغرفة على طاولةٍ صغيرة غير رسمية جلس شيرلوك يُدخن الغليون ويحدِّق إلى مايكروفت الذي جلس قُبالته.

كان مايكروفت يقول: أعظم عقلَين في إنجلترا وجب عليهما أن يصلا إلى إجابة الآن، هل رحلتْ أمُّنا بإرادتها، أم كانت تنوي العودة؟ وحالة الفوضى التي عليها غرفتها...

قاطعَه شيرلوك: يعني أنها خرجتْ دون تخطيطٍ وبسرعة، أو قد يعني انعكاسًا للفوضى التي بداخل عقل تلك المرأة. وما فائدة المنطق ونحن نتعامل مع امرأةٍ في الأغلب خرِفة.

كلاهما وجَّها أنظارهما ناحيتي حين دخلتُ الغرفة آمِلَين أن أكون الخادمة برغم أنه كان يجِب عليهما الآن معرفة أنه لا يوجد خدَم.

- الغداء؟

تساءل مايكروفت.

أجبتُ وأنا أجلس على الطاولة معهما: الله أعلم.. السيدة «لين» في حالةٍ عقلية غير مُستقرّة.

- بالتأكيد.

تأمَّلتُ أخويَّ العبقريَّين، كانا فارِعَي الطول، ووَسيمَين (على الأقل بالنسبة لي)، وأكننتُ لهما الاحترام، أردتُ أن أُحبَّهما. أردتهما أن...

- كلام فارغ يا «إينولا»، ستُبلين حسنًا وحدكِ.

لم يُولِي أخواي لي أيَّ اهتمامٍ مُكمِلَين حديثهما.

قال مايكروفت لـ«شيرلوك»: أؤكد لك أنَّ أمَّنا ليست خرِفة، ولم تفقد عقلها، لا توجد امرأة خرِفة يمكنها إدارة الحسابات التي تُرسِلها إليَّ في العشرة الأعوام الأخيرة، واضحة دائمًا ومنظمة، مُفصَّلةً مصاريف تركيب الحمام...

يقاطعه شيرلوك في لهجةٍ حادة: وهو غير موجود؟

- وغرفة الاستحمام؟

- نفس الشيء.

- ومُرتَّبات الخدَم والطهاة، والمساعدين بزياداتهم السنوية؟

- لا وجود لهم.

- البُستاني ومساعد البستاني، والذين يقومون بالأعمال المتفرِّقة؟

- أيضًا لا وجود لهم، باستثناء «ديك»، والذي عقلُه مُتفرِّق حقًّا.

قالها مايكروفت موافقًا كنكتة، ولكني لم أرَ حتى شبَح ابتسامة على وجه أيٍّ منهما.

- أنا مُتفاجئ أنها لم تضع «رينالد كولي» على تلك القائمة، بالرغم أنه يُعتبر خادمًا، لقد وضعت أحصنة، مُهورًا خياليِّين، ووضعتْ عربات خَيل خيالية، وسائقين لتلك العربات، وعامِلين في الإسطبل لا وجود له!

- لا مجال للشك أنَّنا خُدعنا بشكلٍ جيد.

- وبالنسبة لإينولا فمُدرِّس الموسيقى ومُدرِّب الرقص والمُربية...

نظرة قلقة تنقَّلت بين عينَيهما وكأنَّ مُعضلة فكرية فجأةً صار لها وجه ونما لها شعر، ليلتفِتَ كلاهما في اللحظة نفسها ليُحدِّقا إليَّ.

- إينولا!

سأل شيرلوك: كان لديك مُربية على الأقل؟

- لم يكن لديَّ.

فأُمي تُرسلني إلى المدرسة مع أبناء القرية، وبعد أن تعلَّمتُ كل ما يمكن أن أتعلمه هناك أخبرتْني أنَّني سأُبلي حسنًا وحدي، وقد اعتبرتُ نفسي أنَّني أبليتُ حسنًا. فقد قرأتُ كلَّ كتابٍ في مكتبة

عزبة «فرنديل» بداية من «حديقة آية الطفل» إلى الموسوعة البريطانية، بينما تردَّدت...

وجه ماكيروفت السؤال لي مرة أخرى: لقد حصلتِ على تعليمٍ مناسب أيتها الآنسة الصغيرة. أليس كذلك؟

أجبتُ: لقد قرأتُ شكسبير، وأرسطو، ولوك، وروايات ثاكري، ومقالات ماري والستون كرافت.

تجمَّد وجهاهما. لقد أرعبتُهما بما يكفي، ولم أكن لأستطيع أن أرعبهما أكثر من ذلك لو قلتُ لهما إني تعلَّمتُ أن أؤدِّي حركاتٍ بهلوانية على أرجوحة السيرك.

أدار شيرلوك رأسه لمايكروفت وقال بهدوء: إنه خطئي، لا يجِب الثقة في امرأةٍ أبدًا. لماذا نجعل من أُمِّنا الاستثناء؟ كان يجِب عليَّ أن آتي هنا على الأقل مرةً كل عام مهما كان الأمر مُثيرًا لحفيظتي.

قال مايكروفت بنفس الطبقة الهادئة الحزينة: على العكس يا عزيزي شيرلوك، لقد كانت تلك مسئوليتي، فأنا الابن الأكبر...

قاطعَهُما سُعال خفيف صدر من السيدة «لين» وهي قادمة بصينية شطائر الخيار، والفاكهة

المُقطعة، وجرَّة من عصير الليمون، وأصبح هناك صمتٌ محمودٌ لوهلةٍ حتى قُدِّم الغداء، وخلال ذلك الصمت تكوَّن سؤالي الذي سألته بعد أن خرجت السيدة «لين»: ما علاقة كل هذا بإيجاد أمي؟

بدلًا من إجابتي وجَّه مايكروفت كامل اهتمامه لطبقِه.

طرق شيرلوك بأصابعه على المنضدة وقال: نحن نُكوِّن نظرية.

- وما هي تلك النظرية؟

فأسألهما ثانية: هل ستعود أُمِّي لي مرةً أخرى أم لا؟

لم ينظر لي أيٌّ منهما، ولكن بعد فترةٍ بدت طويلة جدًّا اختلس شيرلوك النظر لأخيه وقال: مايكروفت، أعتقد أن مِن حقِّها أن تعرف.

أطلق مايكروفت زفيرًا وهزَّ رأسه وترك ما تبقَّى من شطيرته الثالثة واعتدل ليواجهني: نحن نُحاول أن نُقرِّر إذا كان ما يحدُث الآن له علاقة بما حدَث حينما... تُوفِّي أبونا، لا أعتقد أنك تتذكَّرين.

قلت: لقد كنتُ أبلغ من العمر أربع سنوات،

أتذكَّر أحصنة سوداء.

- بالطبع. حسنًا، بعد الدفنة وخلال الأيام التي تلتْ كان هناك خلاف...

قاطعَه شيرلوك: ذلك وصْفٌ بسيط لما حدَث. معركة بقاء ربما كانت وصفًا أقرب.

متجاهلًا إيَّاه أكمل مايكروفت: اختلاف على إدارة الأملاك لم يُرِد شيرلوك ولا أنا العيش هنا، فكان رأي أُمِّي أنَّ أموال الإيجار الخاصة بالأملاك من المُفترَض أن تذهب إليها كاملة وأن تدير هي مزرعة فرنديل.

ولكن قد أدارتها بالفعل! لماذا يتحدَّث مايكروفت وكأنها فكرة غير مُحتمَلة؟!

يكمل مايكروفت: وحيث إنني الابن الأكبر فإنَّ الأملاك كانت لي. أُمِّي لم تعترِض على ذلك، ولكن لم تفهم لِمَ لا يمكنها أن تدير هي الأملاك لي، بدلًا من العكس. وحين ذكَّرتها أنا وشيرلوك أنه من الناحية القانونية فهي لا يحقُّ لها حتى العيش هنا إلا لو سمحتُ لها أنا، صارت غير عقلانية، وقالت إنَّنا غير مُرحَّب بنا هنا في مكان مولدنا.

يا إلهي، كل شيء بدا وكأنه ينقلِب في رأسي، وكأني

مُعلقة على جذع شجرة من قدمي. عشتُ حياتي مفترضةً أن أخويَّ عاشا بعيدًا عنها لأنهما يشعران بالعار من وجودي، والآن وحسب ما يَحكِيانه لي فإنَّ مشاكلهما كانت مع أمي.

لم يكن بإمكاني معرفة شعور مايكروفت أو شيرلوك تجاه ما يخبراني به الآن. لم يكن بإمكاني أن أعرف شعوري أنا شخصيًّا تجاه الأمر، غير أنني مذهولة ولكن كنتُ أشعر وكأنَّ هناك فراشات تُرفرِف في قلبي.

أكمل مايكروفت: كنتُ أبعث إليها بالشهرية، وكانت ترسِل إليَّ رسائل رسمية مُطالبة بزياداتٍ لأردَّ مُطالبًا بدوري بكشف حسابٍ لكيفية إنفاق تلك النقود، وكانت تفعل ذلك. دائمًا كانت طلباتها للزيادة منطقية، فلم أرفض أيًّا منها. ولكن كما نرى الآن فإنَّ كل تلك الدفاتر والحسابات خيالية، ما الذي فعلَتْهُ بكل تلك الأموال، فنحن..آآ.. لا نملك أدنى فكرة.

لاحظتُ تردُّده فقلت: ولكن لديكما نظرية.

- نعم.

أخذ نفسًا طويلًا قبل أن يكمل: نعتقد أنها

كانت تدَّخر تلك الأموال، بينما تخطط لهذا العمل الطائش.

نفس عميق آخر، أكثر عُمقًا من الأول: نعتقد أنها أخذت ما تعتبره أموالها واا.. ذهبت إلى مكان ما لـ... لتعاقبنا نوعًا ما.

ما الذي يقوله؟ إنَّ أُمي هجرتْني؟

جلستُ فاغرةً فاهي.

- فلتُشفِق على قدرة الفتاة على الاستيعاب يا مايكروفت.

غمغم شيرلوك لأخيه، ثم نظر لي وقال برفق: إينولا، ببساطة نعتقد أنها هربَت.

ولكن هذا كان.. كان غير ممكن.. مستحيل.. ما كانت لتفعل ذلك بي.

- لا.

نطقتُ أخيرًا...

- هذا لا يمكن.

- فكري يا «إينولا».

قالها شيرلوك مُتحدثًا مثل أُمي.

- كل الدلائل المنطقية تُشير إلى تلك النتيجة. لو

كانت مُصابةً في مكانٍ ما لكانت فرقة البحث قد وجدتها، ولو أُصيبت في حادثٍ كنا سنسمع به. لا يوجَد أي سبب لأي شخصٍ أن يؤذيها، ولا توجَد أي إشارة لجريمة، لا يوجَد سبب لأي أحدٍ أن يأخُذَها ضدَّ إرادتها، غير المُطالَبة بفِدية، وهو ما لم يحدُث.

توقَّف شيرلوك لفترةٍ طويلة قبل أن يُكمل: ولكن في حالة أنها على قيد الحياة وبصحة جيدة وتفعل ما تشاء.

يضيف مايكروفت: كالعادة.

يكمل شيرلوك: فغُرفتها غير المنظمة ربما مجرَّد ستار.

يقول مايكروفت مُتفقًا: لتشتيتنا. لأنه على ما يبدو أنها كانت تُخطط لذلك منذ عدة سنوات.

وقفتُ كصفَّارة بخارية. كان بإمكانها فعل ذلك في أي وقت.

قلتُ ناحبة: لِمَ تفعل ذلك في عيد ميلادي؟

كان ذلك دورهما في الجلوس بفاهين فاغرين، وقد أفحمْتُهُما ولكن في تلك اللحظة التي شعرتُ فيها بالنصر، تسلَّلت القشعريرة إلى جسدي وأنا

أتذكَّـر، لقـد طلبَـتْ أُمـي مـن السـيدة «لـين» أن تُعطِيـني هدايـا عيـد ميـلادي في حالـة عـدَم عودتهـا في وقـت الشـاي، أو عـدم عودتهـا أبـدًا.

الفصل الخامس

ولأن عينيَّ قد احترقتا من كثرة الدموع أخشى أنِّي اعتذرتُ عن إكمال الغداء على عجل.

احتجتُ إلى أن أكون في الخارج، النسيم سيُبرِّد مشاعري المُلتهبة، لا أقِف سوى لألتقط عدة الرسم التي أعطتْني أُمي إيَّاها، أخرج راكضةً من باب المطبخ، أعبر حديقة الخضراوات مارَّةً بالإسطبلات الخالية، وأعبر الحديقة غير المُعتنى بها، لأصل للجزء المليء بالأشجار من العزبة، وبعدَها وقد ضاقت أنفاسي أتمشَّى تحت أشجار البلوط، شاعرةً ببعض التحسُّن.

أشعُر كأني وحيدة في الغابة، أفراد الشرطة وفرقة البحث مرُّوا من هنا بالفعل، ووصلوا إلى حقولٍ بعيدة الآن.

امتدَّت منطقة الأشجار للأسفل، وفي أسفل ذلك الجزء المنحدِر وصلتُ إلى مكاني المفضَّل.

ذلك الوادي الصخري المُغطَّى بالسراخس الخضراء، كثَّوب مساءٍ مخملي يُغطي الأحجار.

أتتبَّع المجرى المكوَّن من الحصى، الذي شكَّل بركة تحت صفصافة مائلة. لا أفكر في الفستان الذي أرتديه، أتسلَّق الصخور المُغطاة بالسراخس حتى أصل إلى الصفصافة، أتعلَّق بجذعها القوي مُحتضِنةً إيَّاه، واضعةً خدِّي على لحائها ليلامس خدي اللحاء المُغطَّى بالطحالب الخضراء، ثم انحنيتُ تحتها لأزحف في التجويف المُظلَّل بين الشجرة المُتدلية والجدول.

هذا الخنُّ الجميل كان ملاذًا سِرِّيًّا لي، لا يعرف أحدٌ مكانه سواي.

احتفظتُ هنا بالأشياء التي أُحبها، أشياء كانت السيدة «لين» ستتخلَّص منها لو أحضرتُها إلى المنزل. ما إن اعتادت عيناي على الظلام، نظرتُ حولي للرفوف الحجرية التي بَنيتُها.

كان هناك أصداف الحلزون، والكثير من الحصى الملوَّن، رءوس جوزة البلُّوط، بعض من الريش الملوَّن، زرار كُم، سلسلة مكسورة، وكنوز أخرى وجدتُها في أعشاش العقعق.

بزفرة ارتياحٍ ضممتُ رُكبتيَّ لتُلامِسا ذقني بطريقةٍ غير أُنثوية تمامًا. ولففتُ ذراعيَّ حول ساقيَّ وحدَّقتُ إلى المياه التي تتدفَّق خلف قدميَّ.

أسماك السلمون المرقَّط الصغيرة كانت تسبح في المياه، أشاهدهم وهم ينطلقون في مجموعة، ثم يُبدِّلون اتجاههم، ويعودون لتكوين التشكيل نفسه مرةً أخرى.

في العادة كانت مُراقبتهم في انطلاقاتهم وتشكيلاتهم تفتنُني، وتجعلني في حالةٍ من الانبهار.

ولكن ليس اليوم، كل ما أستطيع التفكير فيه هو ما الذي ألمَّ بأمي؟ كيف سأتمكن من أن أعود إلى المنزل في النهاية دون أن تكون هناك في انتظاري.

عوضًا عنها سيكون هناك أخواي، وحين أدخل مُغطَّاة بالطين والأتربة سيقولون...

اللعنة على أخويَّ.

أفرد ركبتيَّ، وأفتح عدة الرسم الجديدة، ألتقط قلمًا رصاصيًّا في يدي، وبعضًا من الأوراق.

على واحدةٍ من الأوراق أرسم رسمة سريعة، ليست رسمة جيدة لمايكروفت بنظارته الأحادية، وحذائه الأنيق، وساعة جيبه الثقيلة، التي تمتدُّ سلسلتها حول سُترته، ثم أرسم رسمةً سريعة أخرى مُشابهة لشيرلوك، بساقيه النحيفتَين وأنفه وذقنه. بعدها أردتُ أن أرسم أُمي، حيث إني كنت

غاضبةً منها، أردت رسمها كما كانت، في اليوم الذي رحلت فيه. بقُبعتها التي تُشبه زهرية مقلوبة، وسترتها الطويلة ذات المؤخِّرة الكبيرة مثل مؤخرة الديك الرومي.

كانت في منتهى السُّخف...

ولم تأخُذ أدوات رسمها معها، ولم تكن تتوقَّع أن تعود في موعد احتفالي بعيد ميلادي.

كانت تُخطط لشيءٍ ما، بالرغم من أن ذلك يؤلمني الاعتراف به، ولكنها كانت تُخطط لشيءٍ ما.

في كل ذلك الوقت الذي كنتُ أبحث عنها بفزَع كانت بخير وحدَها، تستمتِع بمغامرةٍ ما بدوني.

يُفترض أن أشعر بالسعادة بتوصُّلنا لكونها حيَّة، ولكن على العكس؛ شعرتُ بالبؤس، لقد تخلَّت عنِّي.

لماذا لم تَرفُضني منذ البداية؟

لماذا لم تضعني في سلةٍ ما وتتركني على عتبةٍ ما حين وُلِدت؟

لماذا تركتْني الآن؟

وأين ذهبت؟

بدلًا من الرسم جلستُ مُفكرة، واضعةً رسوماتي

جانبًا، وكتبت قائمة من الأسئلة:

لماذا لم تأخذني أمي معها؟

لو كانت ستنتقل إلى مسافة طويلة، لماذا لم تستخدم الدراجة؟

لماذا ارتدتْ تلك الملابس الغريبة؟

لماذا لم تستخدم البوابة؟

لو كانت ارتحلتْ عبر البلاد سيرًا على الأقدام فإلى أين كانت ذاهبة؟

بفرض أنها وجدت وسيلة مواصلات.. مرة أخرى إلى أين كانت ذاهبة؟

ما الذي فعلتْهُ بكل هذه الأموال؟

إذا كانت تهرُب، لماذا لم تحمل أيًّ من متاعها؟

لماذا تهرُب يوم عيد ميلادي؟

لماذا تركتني دون وداعٍ أو تفسير؟

تركتُ قلَمي الرصاصيَّ، وحدَّقتُ إلى الجدول. الأسماك الصغيرة ما زالت تتحرك كدموعٍ سوداء.

شيءٌ ما تحرك تحت الصفصافة المائلة، حين استدرتُ لأنظر وجدتُ رأسًا مألوفًا ينبش.

قلتُ ساخطة: رينولد، اترُكني وحدي.

ولكني انحنيتُ تجاه الكلب العجوز، انطلق بأنفه ووجهه يتشمَّم وجهي ويهزُّ ذيله وأنا أُحيط رقبتَه بذراعي.

- شكرًا رينولد.

جاء صوت مُتحضِّر، ووجدتُ أخي شيرلوك يقِف فوقي.

لاهثةً دفعت برينولد بعيدًا ومددتُ يدي لأجذب الأوراق التي تركتُها على الأرض، ولكن لم أكن بالسرعة الكافية؛ فشيرلوك التقطَها أولًا.

حدَّق في رسوماتي لمايكروفت وله، ثُم ألقى برأسه ضاحكًا ضحكةً خافتة ولكنها حقيقية اهتزَّ لها جسده كثيرًا حتى جلس على صخرةٍ بجانب الصفصافة مُلتقطًا أنفاسه.

شعرتُ أني أحترق من الخجل، ولكنه كان يبتسِم ليقول لي ما بين ضحكاته: أحسنتِ يا إينولا، لدَيك

موهبـة فطريـة في رسـم الكاريكاتـير.

أعطـاني الرسـومات، وهـو يقـول: ولكـن مـن الأفضل ألَّا يراهـا مايكروفت.

أبقيـتُ نظـراتي ووجهـي الملتهـب مـن حُمـرة الخجل نحـو الأرض وأنـا أضـع الرسـومات مـع عدة الرسـم.

قـال أخـي: يومًـا مـا تلـك الشـجرة ستسـقُط تمامًـا في المـاء. ونتمـنَّى ألَّا تكـوني تحتهـا حـين يحـدُث ذلـك.

عـلى الأقـل هـو لـم يكـن يسـخَر مـن مـلاذي، ولكـني شـعرتُ بلـومٍ بسـيط ورغبـة منـه أن أخـرج.

عابسةً خرجت.

سـألني: مـا تلـك الورقـة الـتي تحملينهـا في يـدك؟ هـل يُمكنـني رؤيتهـا؟

قائمـتي.. أعطيتُـه إيَّاهـا وأنـا أُخـبر نفـسي لا أهتـمُّ بمـا يظنُّـه فيَّ بعـد الآن.

جلسـتُ مُلقيـةً بجسـدي عـلى صخـرة أخـرى مُغطاة بالسراخـس بينمـا هـو يقرأ.

كان يقـرأ قائمـتي بتركـيز حقًّـا متفكـرًا، وظهـر عـلى وجهـه ذي الأنـف البـارز علامـات الجديـة.

- لقد غطَّيتُ كل النقاط البارزة.

قال في النهاية، وقد اختلطت لهجته بقليلٍ من الدهشة.

- أعتقد أنَّنا يمكننا أن نتخيَّل أنها لم تستخدِم البوابة لأنها لم تُرِدْ أن يراها الحارس، ويعرف أيَّ اتجاهٍ رحلت فيه، ولنفس السبب فهي لم تُرِد أن تستخدِم الطُّرق حيث من المُمكن أن تقابل أشخاصًا يصيرون شهودًا فيما بعد. لقد كانت ذكيةً بما يكفي لتترُكنا بلا أدنى فكرة إن كانت ارتحلت شمالًا، جنوبًا، شرقًا، أم غربًا.

هززتُ رأسي، واعتدلتُ في جلستي وأنا أشعر أنني أفضل؛ فأخي شيرلوك لم يسخر من أفكاري، كان يتحدَّث معي.. تلك الفراشات التي شعرتُ بها في قلبي بدأتْ أفهم سببها، لقد بدأتُ حين عرفتُ أنَّ خلافَ أخويَّ كان مع أمي وليس معي. لقد كان أملًا.. حُلمًا.. تطلُّعًا حقًا، والآن هناك فرصة.

أردتُ أخويَّ أن... لم أجرؤ حتى على التفكير في المصطلح الذي أستطيع أن أصِف به، ربما أردتُ منهما فقط بعض الاهتمام بشكلٍ ما.

كان شيرلوك يقول: وبالنسبة للنقاط الأخرى فأرجو أن يتَّضِح قريبًا.

هززتُ رأسي مرة أخرى.

- سؤال واحد لم أستوعِبه. حصلتُ من «لين» على وصفٍ لملابس أُمِّنا، لم أفهم لِمَ تَصفينَه بالغريب؟

احمرَّت وجنتاي حين تذكَّرتُ سؤالي للسيد «لين» عن حشو الأرداف.

كل ما استطعتُ فعله هو أن أُغمغم: آاااا الـ.. المُحسِّن.. الثوب.

- آه، حشو الأرداف.

كان من السهل عليه أن يقولها بلا حرَج.

- سأل يومًا ما آكِلُ لحوم البشر زوجة المُبشِّر: هل كل نسائكم مُشوَّهات هكذا؟ حسنًا، لا يمكن أن نعدَّ ونُحصي الطرُق التي تُجمِّل بها النساء أنفسهن، نزوات الجنس اللطيف لا تخضع لمنطق.

قالها هازًّا كتفَيه دون أن يُبدي اهتمامًا بالموضوع.

- إينولا، سوف أعود إلى لندن من فوري، لذا فكنتُ أبحث عنكِ لأودِّعك، وأُخبرك كم كان مُبهجًا أن أراك بعد كل تلك السنوات.

مدَّ يدَه المُغطَّاة بالقفاز وتمسَّكتُ بها للحظة، لم أستطع أن أتحدَّث.

أكمل شيرلوك:

- مايكروفت سوف يظلُّ هنا لعدة أيام، بالرغم من صعوبة بقائه بعيدًا عن نادي ديوجينز المُحبَّب.

بعد أن ابتلعتُ ريقي لأستعيد صوتي سألت: ما الذي سوف تفعله في لندن؟

- سأقدِّم طلبًا في «سكوتلاند يارد» للبحث في قوائم المسافرين على البواخر باحثًا عن سيدةٍ تسافر وحيدة؛ في حالة أنَّ نظريَّتَنا صحيحة فأمُّنا تركت لندن لتذهب إلى جنوب فرنسا قبلةَ الفنَّانين، أو لعلَّها تحجُّ إلى مقام النَّسويات المُتحرِّرات.

ثم نظر إلى عينيَّ متسائلًا: إينولا، أنت قضيتِ معها وقتًا أكثر منَّا مؤخَّرًا، أين تعتقدين أنها ذهبت؟

شيرلوك هولمز العظيم يسألني عمَّا أعتقِده، ولكنِّي لم أملك أيَّ اعتقاداتٍ أو نظريات، فأنا بالرغم من كل شيء فتاة بِجُمجُمةٍ صغيرة.

أشعر بحُمرة الخجل مرةً أخرى تحرق وجنتيَّ، هززتُ رأسي يمينًا ويسارًا.

- حسنًا، الشرطة أبلغتنا أنها لا أثرَ لها، إذن فأنا

راحل.

قام واقفًا، لامسًا حافة قُبعته مُحيِّيًا إيَّاي، ثم قال: اطمئنِّي، لا يوجَد أي دليل على أن أيَّ أذًى قد لحِق بها.

ثم مُؤرجِحًا عصاه مشى في الوادي بين الصخور في سهولةٍ ووقار وكأنه ينزل على سلالم رخامية من قصرٍ في لندن، وحين وصل إلى نهاية الوادي دون أن يلتفِتَ رفع عصاه هازًّا إيَّاها كنوعٍ من أنواع الوداع، ثم أكمل طريقه للمنزل والكلب يتبعه.

راقبتُه حتى اختفى بين الأشجار، عالمةً أنه دون أن يكون ذلك ذنبه ولكنِّي لن أتواصل معه لفترةٍ طويلة.

حين عدتُ إلى المنزل بحثت عمَّا أطلق عليه السيد «لين» مُحسِّن الثوب، وجدته حيث تركتُه في القاعة الأمامية، وهو مكان غير مناسب على الإطلاق لشيءٍ مثل ذلك.

تساءلتُ لِمَ ارتدت أُمِّي الفستان الواسع ذا الظهر العريض دون أن تضع اللبادة أو حشو الأرداف.

مُتفكرةً ظللتُ أمشي حتى صعدتُ لغرفتها

لأُعيد حشو الأرداف لغرفة نومها حيث وجدته، في حالة إن احتاجتْهُ مرة أخرى حين...

تعود؟

لم يكن هناك سبب يجعلني أفكر أنها سوف تعود أبدًا، فهي اختارت أن ترحل بإرادتها الشخصية.

أغوص في المقعد الخشبي الموضوع في الطُّرقة ممسكةً بحشو الأرداف الذي كان مصنوعًا من الخيش وقد أمَلْتُ رأسي على صدري.

بقيتُ على هذا الوضع لفترةٍ طويلة، وأخيرًا رفعتُ رأسي، الذي امتلأ بأفكارٍ انتقامية.

لو أُمي تركتْني إذن فمن حقِّي أن أعبثَ وآخُذ ما أريدُه من الأشياء التي تركتْها في غرفتها.

كان ذلك قرارًا أخذتُه؛ جزءٌ منه تشفٍّ، والجزء الآخر ضرورة؛ فقد دُمّرت عباءتي وأحتاج لتغييرها؛ فالعباءات الأخرى القليلة التي أملكها تبدو في حالةٍ أسوأ من العباءة البيضاء التي أرتديها الآن المُزيَّنة بالبُقَع الصفراء والخضراء جرَّاء تلوُّثها بالأتربة والحشائش.

إذن فسوف أختار شيئًا من خزانات ملابس أُمي.

أقـف وأتحـرك في سرعـة، اتَّجَهـت للأعـلى إلى بـاب أُمـي وأدرتُ المقبـض، ولكـن دون فائـدة. البـاب كان مسـكرًا.

لا بـدَّ أنَّ اليـوم هـو أكـثر الأيـام إزعاجًـا عـلى الإطـلاق.

مُسـتندةً عـلى «درابزيـن» السـلالم مـددتُ رأسي وسـمحتُ لصـوتي أن يكـون مُزعجًـا وعاليًـا وأنـا أقـول: «لـين».

- هششششش.

ويـا للعجَـب حيـث إنـه كان مـن المُمكـن أن يكـون في أيِّ مـكان، مـن العُلِّيـة إلى القبـو فقـد ظهـر الخـادم تحـتي مبـاشرةً في لحظـاتٍ وأصبعـه المُغطَّـاة بالقفـاز الأبيـض عـلى شـفتَيه وهـو يقـول: آنسـة «إينـولا» سـيد «مايكروفـت» يأخـذ قيلولـةً الآن.

مُتبرِّمـة أشرتُ إلى السـيد «لين» أن يصعد السـلالم، وحـين قـام بذلـك قلـتُ لـه بصـوتٍ هـادئ: أحتـاج إلى مفتـاح غُـرَف أُمي.

السـيد «مايكروفـت» أعطـى أوامـره أن تبقـى تلـك الغـرف مُسـكرة.

غلبَتِ الدهشة ضِيقي، وأنا أسأل: لماذا؟

- لستُ في مجال يسمح لي بالسؤال عن ذلك يا آنسة «إينولا».

- حسنًا، لا أحتاج إلى المفتاح، فقط افتح ليَ الباب إذن.

- عليَّ أن آخُذ إذْن السيد مايكروفت يا آنسة إينولا، وسينزعِج إذا أيقظتُه الآن، فالسيد مايكروفت قد أعطى أوامر بـ...

السيد مايكروفت هذا.. السيد مايكروفت ذلك.. السيد مايكروفت يُمكنه أن يذهب ليغطس رأسه في برميلٍ من الأمطار.

أدفَع بمُحسِّن الثوب في صدر سيد «لين» قائلة: أحتاج إلى أن أضع ذلك في مكانه.

احمرَّت وجنتا الخادم وهو ما أذهلَني، حيث إنَّني لم أره يخجَل من قبل.

قلتُ بصوتٍ أكثر هدوءًا من بين أسناني: وأيضًا أريد أن أبحث في خزانة أمي عن شيء أرتديه، فلو نزلتُ للعشاء بعباءتي في حالتها الحالية، أعتقد أنَّ السيد مايكروفت سيكون مُستاءً أكثر، افتح لي الباب.

دون كلمةٍ أخرى فتح السيد «لين» الباب،

ولكنه احتفظ بالمفتاح وظلَّ واقفًا بجانب الباب في انتظاري، ولذا وقد ملأني العناد، فقد قررتُ أن آخُذ وقتي تمامًا، ولكن وأنا أبحث بين ملابس أمي فكرتُ في ذلك التطوُّر الجديد؛ تسكير غُرَف أمي والدخول لها بإذن من مايكروفت ذاك غير مقبول. تساءلتُ إذا كانت أمي قد تركتْ مفتاحها الخاص؛ الفكرة أخافتْني.

فلو كانت فعلتْ ذلك، فهذا سيعني أنها بالفعل لم تنوِ العودة، ففي العادة حين تخرج بالنهار فسوف تأخُذ مفتاح غُرَفها معها، احتجتُ عدة أنفاسٍ عميقة قبل أن أمدَّ يدي في رداء الخروج خاصَّتها، والذي كان ما يزال مُعلقًا على الشماعة بجانب المرآة، ووجدتُ المفتاح على الفور في الجيب.

شعرتُ به ثقيلًا في يدي، وظللتُ أنظر إليه وكأني لم أرَه من قبل. المِقبض البيضاوي في نهايته، والمُستطيل المُستَّن في الطرف الآخر، يا له من شيءٍ غريب مصنوع من حديدٍ بارد.

إذن فهي حقًّا لم تكن تنوي العودة.

أصبح ذلك الهيكل المعدني في يدي أغلى ما أملك. أضمُّ قبضتي عليه، تناولتُ فستانًا من

دولاب أمـي ووضعتُـه فـوق يـدي لأُخفـي المفتـاح وخرجـتُ مـرة أخـرى.

- حسنًا يا «لين».

قلتُهـا بـدون إبـداء أي مشـاعر. وسـكر البـاب بعدهـا.

في وقـت العشـاء كان مايكروفـت مـن الـذوق ألا ينبـثَ بكلمـةٍ عـن الفسـتان الـذي اسـتعرتُه.

فقـد كان واسـعًا، مُتطايـرًا، تبـدو فيـه رقبـتي كعصـا مقشَّـة، وبالرغـم مـن أنَّ طـولي كان يُماثـل طـول أمـي، إلَّا أنـني افتقـرتُ إلى تفاصيـل جسـدها الأنثويـة.

عـلى أي حـالٍ فـإني قـد اخـترتُ ذلـك الفسـتان للونـه الأشـبه بالخـوخ، مـع لمسـةٍ مـن الكريمـة، الـذي أحببتُـه كثـيرًا، ولـم أخـتره لأنـه يُلائمـني.

كان الفسـتان قـد أخفـى حـذاء الفتيـات الصغـيرات الـذي أرتديـه، وكنـتُ ربطـتُ وشـاحًا عـلى وسـط الفسـتان ليظهـر مـا يُماثـل وسـطًا لي.

ارتديـتُ قـلادة وحاولـتُ حـتى أن أسرِّح شـعري، ولكـن للأسـف لونـه البُـني، وكونـه أشـعثَ لـم يكـن بالضبـط تاجًـا لجمـالي.

بشـكلٍ عـام أنـا متأكـدة أني بَـدوتُ كطفلـةٍ تلعـب

تُحاول تمثيل أنها من الكبار.

بالرغم من أنَّ مايكروفت لم يقُل أيَّ شيء. إلا أنه كان من الواضح أنه لم يكن مسرورًا.

مجرد أن وضعت الأسماك على المائدة قال لي: لقد راسلت الخياطة في لندن لتزويدك بملابس مناسبة.

هززتُ رأسي، سيكون من اللطيف الحصول على ملابس جديدة.

وإذا لم يُعجبوني فيُمكنني بسهولةٍ العودة إلى بنطلوناتي القصيرة التي أرتاح بها بمجرَّد أن يُدير رأسه، ولكنِّي قلت: هناك خيَّاطة هنا في كينفورد.

- نعم أنا أعلم ذلك، ولكن الخيَّاطة في لندن تعرف تمامًا ما الذي تحتاجين إلى ارتدائه في مدرسةٍ داخلية.

ما الذي يتحدَّث عنه؟

بصبرٍ شديد قلت: أنا لن أذهب إلى مدرسةٍ داخلية.

بصبرٍ مُماثل أجابني: بالتأكيد سوف تفعلين يا إينولا، لقد تواصلتُ مع عدة مؤسَّسات ممتازة للشابَّات.

أخبرتْني أمي عن مؤسَّسات مثل تلك، كانت منشورات «راشونال دريس» مليئةً بتحذيراتٍ من تلك المؤسَّسات ومن الصوَر المغلوطة التي تزرعها تلك المدارس في العقول، واضِعين الصورة المِثالية للأنثى كساعةٍ رملية، في إحدى تلك المدارس ناظرة المدرسة تضع مشدًّا على خصر كل الفتيات المُلحقات بالمدرسة، ويبقى ذلك المشدُّ ليلًا ونهارًا؛ مُستيقظاتٍ أو نائمات. باستثناء ساعةٍ واحدة في الأسبوع يُزال من أجل التطهُّر، أي حتى تتمكن الفتاة من الاستحمام، ثم استبداله مرةً أخرى وإحكامه أكثر لتُحرَم مُرتديتُه من القدرة على التنفُّس بطريقةٍ طبيعية فتتسبَّب أقل صدمة في سقوطها أرضًا فاقدةً للوعي. وكان يُعتبر ذلك رقَّة، ويُعتبر ذلك أيضًا شيئًا أخلاقيًّا مُعتبرين المشدَّ مراقبًا حاضرًا أبدًا يُجبر مُرتديتَه على ضبط النفس، مُسببًا لضحاياه تعاسةً دائمة مع استحالة الانحناء أو الاسترخاء.

كانت المشدَّات الحديثة على عكس مشدَّات أمي القديمة المصنوعة من عظام الحوت طويلة جدًّا حتى أنهم يصنعونها من الفولاذ، كيلا تنكسِر، ولكنَّ صلابتها تلك تُسبب جمود الأعضاء

الداخليـة، وتصنـع تشـوُّهات للقفـص الصـدري.

إحـدى روَّاد تلـك المـدارس تسـبب المشـدُّ في كـسْر واحـدٍ مـن أضلُعهـا مُسـببًا موتَهـا، ولكـن خصرهـا وهـي مُسـتلقية في نعشـها لـم يـزد عـلى الخمـس عـشرة بوصـة.

كل ذلـك مـرَّ بـرأسي في لحظـةٍ وشـوكتي تسـقُط في طبقـي مُجلجلـة.

جلسـتُ مصدومـة تعتريـني القشـعريرة مـن الرُّعب، وبالرغـم مـن ذلـك غـير قـادرة عـلى النطـق بـأي اعـتراضٍ لأخـي. فالحديـث عـن أمـرٍ فائـق الخصوصيـة مثـل هـذا مـع رجـلٍ أيًّـا كان، لا يمكـن تخيُّلـه.

كل مـا صـدر مـنِّي كان شـهيقًا وأنـا أقـول: ولكـن أمـي...

- لا يوجَـد أي دليـلٍ عـلى أن أُمَّـك سـوف تعـود في أي وقـتٍ قريـب، ولا يُمكنـني البقـاء هنـا إلى الأبـد.

فكرتُ أنه «حمدًا لله على ذلك».

- ولا يمكنـك أن تبقَـي هنـا لتَحـيَي حيـاةً فارغـة وحـدَك. أليـس كذلـك يـا إينـولا؟

- ألن يبقى السيد والسيدة «لين»؟

عقـد حاجبَيـه واضعًـا سـكين الخـبز الـذي كان

يدْهــن بهــا الزبــدة عــلى خُــبزه.

- بالتأكيد، ولكنَّ الخدَم لا يمكنهم أن يربُّوك.

- كنتُ أحاول أن أقول إنَّ أُمي لن يُعجبها...

- أمك فَشِلت في مسئوليتها تجاهك.

صــارت نــبرةُ صوتــه أكــثر حــدَّةً مــن ســكين الخــبز الــذي يُمســكه.

- مــا الــذي ســيحدُث لــكِ إن لــم تُحقِّقــي بعــض الإنجــازات؟ وتحصُــلي عــلى قليــلٍ مــن المكانــة الاجتماعيــة؟ لــن يمكنــك الانتقــال أبــدًا للمجتمــع المهــذَّب، واحتمــالات زواجــك...

- كل هذا لا يُساوي شيئًا.

قلتُ مقاطعة:

- فأنا أبدو كشيرلوك.

أعتقد أنَّ صراحتي المُبالغة صدمتْه.

- يا فتاتي العزيزة.

وقد خفَّت نبرة صوته:

- ذلك سيتغيَّر، أو سنُغيِّره.

أفــترِض أنَّ ذلــك التغيــير ســيأتي بالجلــوس ســاعاتٍ لا نهايــة لهــا واضعــةً كتابًــا فــوق رأسي، بينمــا أعــزف

على البيانو. أيام أقضيها في العذاب، بالإضافة إلى المشدَّات التي سأرتديها، و«مُحسِّنات الأثواب»، وربما بعض الشَّعْر المُستعار، ولكنه لن يقولها صراحةً.

- أنتِ تأتين من عائلةٍ ذات سمعة وأصل، وببعض التحسينات فإنني على ثقةٍ أنكِ لن تُلحِقي بنا عارًا.

قلت: لطالما كنتُ عارًا، وسأظلُّ دائمًا. لن أذهب إلى أي مؤسَّسة «تشطيبات» للآنسات الصغيرات.

- بلى، ستفعلين.

والشرار في عينَيه عبر المائدة أراه في ضوء الشموع.

كنَّا قد توقَّفنا عن التظاهر أننا نتناول الطعام، وأنا مُتأكدة أنه يعلم جيدًا كما أعلم أنا أنَّ كلًّا من السيد والسيدة لين كانا يسترِقان السمع، ولكنني شخصيًّا لم أهتم.

رفعتُ صوتي قائلة: لا، ائتِ لي بمُربيةٍ إذا توجَّب عليك، ولكنِّي لن أذهب إلى أيِّ مدرسةٍ داخلية. لا يمكنك إجباري على الذهاب.

مـرةً أخـرى تقـلُّ الحـدَّة في صوتـه، ولكنـه يقـول: بـلى يُمكنـني، وسـأفعل.

- مـا الـذي يَعنيـه ذلـك؟ هـل سـتضَعُني في أغـلالٍ وتجـرُّني إلى هنـاك!

زفـر مُنزعجًـا، ونظـر للسـقف ليُخـبره: مثـل أمهـا تمامًـا.

ثـم أعـاد النظـر لي بنظـرةٍ استشـهادية جمَّدَتْـني وهـو يقـول في نـبرةٍ عقلانيـة معسـولة: إينـولا، قانونيًّـا أنـا المُتحكِّـم تمامًـا بـكِ وبأُمِّـك، أسـتطيع إذا رغبـتُ أن أحبسـك في غرفتـك حـتى تـرَي العقـل، أو أتَّخِـذ أيَّ طُـرق أخـرى أراهـا ضروريـةً لتحقيـق النتيجـة المرجـوَّة، وأضيفـي عـلى ذلـك أنـني أخـوكِ الكبـير؛ فأنـا أحمـل مسـئوليةً أخلاقيـة تجاهـك، ومـن الواضـح أنـك تُركـتِ لفـترةٍ طويلـة دون رقيـب، ربمـا أنـا هنـا في الوقـت المناسـب تمامًـا لأُنقـذك مـن حيـاةٍ ضائعـة، سـتفعلين مـا أقولـه لـك.

في تلـك اللحظـة فهمـتُ بالضبـط شـعور أُمـي في الأيـام الـتي تلـتْ وفـاة أبي، ولمـاذا لـم تحـاول أن تـزور أخـويّ في لنـدن، أو تسـتقبلهما في عزيـة فرنديـل، ولماذا كانت تخدَع مايكروفت في حساب الأموال.

وقفت: العشاء لم يعُد يُثير شهيَّتي، أنا واثقة من أنك ستعذُرني.

كم أتمنَّى أن أقول إنني قد ذهبت إلى غُرفتي بكرامتي، ولكن الحقيقة هي أنني تعثَّرتُ في تنُّورتي، تدحرجتُ على السلالم.

الفصل السادس

في تلك الليلة لم أستطع النوم، في البداية، لم أستطع حتى أن أبقى ثابتةً في مكاني في رداء النوم حافية القدمَين. ظللتُ أتجوَّل في أركان غرفة نومي من أولها لآخرها، كما أتخيل أنَّ الأسْود في حديقة لندن تتجوَّل في أقفاصها فيما بعد؛ بعدما خفضتُ إضاءة المصباح الزيتي، وأطفأتُ الشموع، أبتْ عيناي أن تُغلقا.

سمعت خطوات مايكروفت وهو يعود إلى غرفة الضيوف، وسمعت السيد والسيدة لِين يصعدان لغرفتهما في الطابق العلوي، وأنا ما أزال راقدةً أحدق إلى الظلال.

لم يكن سبب حزني الشديد واضحًا بالكامل في البداية؛ لقد كان مايكروفت هو من أغضبني، ولكن رؤيتي المختلفة لأُمي هي ما سببتِ اضطرابي، كدتُ أشعر بالغثيان من تلك الأفكار، كان من العجيب التفكير في أُمي على أنها شخص مثلي وليست مجرَّد أم، ولكن هي كذلك، كانت ضعيفةً

وقويـة أيضًـا.

شـعرتْ أنهـا مُحـاصرة كمـا أشـعر الآن، شـعرتْ بالظلـم، بنفـس الظلـم، وأُجـبرت عـلى الطاعـة، كمـا سـأُجبر أنـا.

أرادت أن تتمـرَّد كمـا أتـوق أنـا للتمـرد، دون أن أعـرف كيـف سأسـتطيع أو أقـدِر عـلى ذلـك، ولكـن في النهايـة فقـد فعلتْهـا؛ تمـرُّد مجيـد، يُحـيِّرني. لمـاذا لـم تأخـذني معهـا؟

أركل الأغطيـة وأنطلـق مـن السريـر، رافعـة مـن نـور المصبـاح، إلى مكتـبي، ذي الأطـراف المُزينـة بالـورود الـتي لـم تنجـح في إبهاجـي الآن.

قبضـتُ عـلى ورقـةٍ وقلمـي الرصـاصي مـن عـدة الرسـم، ورسـمتُ صـورة غاضبـة لأمـي، كلهـا تجاعيـد، وفـكٌّ عظيـم، وبدَّلـت فمَهـا بخـط مسـتقيم، ورسـمتُ القبعـة العاليـة، والسـترة ذات ظهـر الديـك الرومـي، مُمسـكة بمظلَّتهـا كَسَـيف، بينمـا حشـو الأرداف الضخـم خلفهـا مُمتـدٌّ كقطـار.

لمـاذا لـم تخـبرني بالحقيقـة؟ ولمـاذا تركتـني خلفَهـا ؟

حسـنًا أسـتطيع أن أتفهَّـم برغـم الألـم أنهـا لـم

ترغب في الوثوق في فتاة صغيرة بسرِّها، ولكن لماذا لم تترك على الأقل تبريرًا أو حتى وداعًا؟ ولماذا اختارت الرحيل يوم عيد ميلادي؟ أُمي في حياتها لم تأخُذ غرزةً بدون خيط، ولا بدَّ أن لدَيها سببًا، ولكن ما هو؟ لأنه...

اعتدلتُ فجأة على مكتبي فاغرةً الفاه.

الآن أرى.

من وجهة نظر أمي.

أمي كانت ذكية.. ذكية، ذكية، ذكية. لقد تركت لي رسالة كهديةٍ في يوم عيد ميلادي، ولذلك اختارت هذا اليوم دونًا عن أي يومٍ آخَر لترحَل.

يوم للهدايا حتى لا يلاحظ أحد...

انطلقتُ باحثةً أين وضعتها؟

احتجتُ إلى إشعال شمعةٍ حاملة إيَّاها معي حتى أستطيع الرؤية.

لم تكن على رفِّ المكتبة، لم تكن موضوعة على أيٍّ من المقاعد، لم تكن موضوعة على طاولة الزينة، لم تكن على الحوض، لم تكن على السرير، لم تكن على الحصان الهزَّاز الذي كان يومًا إحدى لُعَب أخويَّ. مذهولة مُتحيرة من غبائي

ورأسي المشـوَّش، أيـن وضعتهـا؟

وجدتُهـا داخـل بيـت الدُّمـى المُهمَـل الخـاص بي، هـا هـي حزمـة صغـيرة مـن أوراق الرسـم الملوَّنـة المنقوشـة باليـد، طُويـت بحـرصٍ مـن منتصفهـا، خِيطَ عـلى طـول الطيَّـة، كتيـبٌ مُشـفَّر صنعتْـهُ لي أمـي.

ALO NEK OOL NIY MSM UME HTN ASY RHC

بخـطٍّ أمـي المُمـيز، والحـروف المشـبوكة. نظـرة واحـدة عـلى الشـفرة الأولى جعلتْـني أغلـق عيـنيَّ راغبـةً في البـكاء.

فكِّري يا إينولا.

وكأنَّـني أسـمع صـوت أمـي يُشـجعني مـن داخـل رأسي: سـتكونين بخـير وحـدَك يـا إينـولا.

فتحـتُ عيـني وحدَّقـت إلى السـطر، وحروفـه غـير المُرتَّبـة، وفكـرت: حسـنًا، بـادئ ذي بـدءٍ لـن تكـون الجملـة كلهـا مكوَّنـة مـن كلمـاتٍ ذات ثلاثـة أحـرف فقـط.

آخـذة ورقـةً بيضـاء فارغـة مـن عـدة الرسـم، جذبـتُ المصبـاح الزيـتي مـن ناحيـة وشـمعة مـن ناحيـة أخـرى، ثـم نسـختُ الحـروف كالتـالي:

CHRYSANTHEMUMSMYINLOOKENOLA

الكلمـة الأولى كانـت واضحـة. Alone أي وحيـدة، أم علَّهـا تقصـد إينـولا إذا عكسـتُ الكلمـة؟

أجرِّب أن أعكس كل الحروف:

CHRYSANTHEMUMSMYINLOOKENOLA

تمـرُّ عينـاي عـلى الجـزء الأول وتتوقَّفـان عنـد الثلاثة حروف **MUM**، أم.

أمي كانت تبعث لي برسالة عن نفسها؟

MUMS MY IN LOOK ENOLA

أمك الخاص بي داخل انظُري إينولا

ترتيب الكلمات يبدو معكوسًا

ENOLA LOOK IN MY

إينولا انظري داخل

بحـقِّ السـماء، هـي لا تقصـد **MUM** أم، ككلمـة بذاتهـا، ولكـن تقصـد **CHRYSANTHEMUMS**، أي الأقحوانـات.

أطـراف الصفحـة المُزينـة بالزهـور أخبرتـني؛ أقحوانـات ذهبيـة مُزخرفـة عـلى جوانـب الصفحـة.

لقد فككتُ الشفرة.

لم أكن غبيةً تمامًا.

أو ربمـا كنـت، مـا الـذي تعنيـه بـ«إينـولا انظـري داخـل أقحوانـاتي؟» هـل دفنـتْ أمـي شـيئًا في أصيـص زهـورٍ في مـكان مـا؟ مـن غـير المحتمـل، لا أظـنُّ أن أمـي قـد أمسـكت برفـشٍ في حياتهـا.

كانـت تلـك المهـام مسـئولية «ديـك»، وفي أي حـالٍ لـم تكـن أمـي بُسـتانية، كانـت تحـبُّ تـرك الزهـور القويـة مثـل الأقحوانـات تتـولَّى نفسـها.

الأقحوانات في الخارج، أي أقحوانات يمكن اعتبارها الأقحوانات الخاصة بها؟ دقَّت ساعة البهو السُّفلي في الثانية صباحًا، لم يسبِق لي من قبل أن بقيتُ ساهرةً حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل.

شعرتُ بغمامة على عقلي وأنه يطير حرًّا بعيدًا عن رأسي.

شعرتُ أني مُتعبة بما يكفي أن يُمكنني الذهاب للنوم الآن، ولكني لم أرغب في ذلك. لحظة. أمي أعطتني كتابًا آخر (معنى الزهور).

أتناوله سريعًا باحثة في الفهرس عن الأقحوانات: «إهداء الأقحوانات يُشير إلى الارتباط العائلي، وبالتالي إلى المودة».

الإشارة إلى المودة كانت أفضل من لا شيء.

بينما أنا جالسة قررتُ أيضًا البحث عن معنى زهرة البسلة: «الوداع، وداعًا وشكرًا على الوقت الجميل، هدية تقدَّم عند الرحيل».

الرحيل.

بعدها بحثتُ عن زهرة الشوك: «التحدي».

ابتسمتُ في حزن.

إذن فقد تركت لي أمي رسالةً برغم كل شيء، الرحيل والتحدِّي في المزهرية اليابانية في غرفة جلوسها التي زُين حائطها بألوان الماء.

زهور مرسومة بألوان الماء.

جفلتُ وابتسامتي تتَّسع.

- إينولا.

همستُ لنفسي: تلك هي.

أقحواناتي، هي تتحدَّث عن تلك الزهور التي رسمتْها، وبروَزتْها على الحائط في غرفة الجلوس.

دون أن أُكثر التفكير في كيفية أن يكون هناك شيء داخل لوحة أمي، أو ما الذي يمكن أن يكون؛ علمتُ أنني فهمت الرسالة، وعلمتُ أنَّ عليَّ الذهاب ورؤيتها في تلك اللحظة، في أكثر ساعات الليل إظلامًا. بينما لا يوجد أحد، خاصةً أخي مايكروفت، يُمكنه أن يُلاحظ.

الفتيات يجب عليهنَّ اللعب بالدُّمى.

على مدار الأعوام كان الكبار الذين لا يعنون سوى الخير قد أهدوني دُمًى متنوعة.

كنت أكره الدُّمى، وأنزع رءوسها حين أستطيع، ولكن الآن أخيرًا وجدتُ استخدامًا لهم.

داخـل رأس الدُّميـة المفـرَّغ ذات الشـعر الأصفـر كنـتُ قـد خبـأتُ المفتـاح لغُـرَف أمـي. احتجـت إلى دقيقـة لإخراجـه، ثـم فتحـتُ بـاب غرفـتي، وقـد خفضـت إضـاءة المصبـاح الزيـتي، وحملـتُ شـمعة معـي.

كان بـاب غرفـة أمـي مقابـلًا لبـاب غرفـتي في نهايـة الطرقـة بجانـب بـاب غرفـة الضيـوف حيـث ينـام مايكروفـت.

تمنَّيـتُ أن يكـون نائمًـا، وتمنَّيـت أن يكـون ثقيـلَ النـوم.

حافيـة القدَمـين والشـمعة في يـدٍ والمفتـاح الثمـين في الأخـرى تحرَّكـتُ عـلى أطـراف أصابعـي في الطرقـة، حـين اقتربـتُ مـن بـاب غرفـة مايكروفـت المُغلـق جـاء صـوت يُشـبه صـوت خنزيـر مُتمـددًا تحـت الشـمس؛ يبـدو أن أخـي يُشـخِّر. إشـارة إلى أن نومـه ثقيـل بالتأكيـد.

ممتاز.

محاوِلـةً ألَّا أُصـدر أقـلَّ قـدرٍ مـن الضوضـاء أدخلتُ المفتـاح في قفـل بـاب أمـي. أدرتُ المفتـاح وأنـا أُديـر المقبـض، ومـع طقَّـة المِـزلاج جـاء شـخير مقطـوع

مـن غرفـة نـوم مايكروفـت.

أستدير لأنظر إلى باب غرفته مُتجمِّدة في مكاني.

أسـمع أصـوات حركـة وكأنـه يتقلَّـب. صـوت أزيـز الفـراش، ثـم عـادت معزوفـة الشـخير.

دلفـتُ إلى غرفـة أمـي وأغلقـت البـاب مـن خلفـي مُطلقـة زفـيرًا، رفعـتُ الشـمعة وأنـا أتصفَّـح الحوائـط؛ الكثـير مـن الزهـور قـد رسـمتها أمـي بألـوان المـاء. بحثـتُ في الحوائـط الأربعـة، وأنـا أُجهـد عينـيَّ في تمييـز الصـور في إضـاءة الشـمعة الضعيفـة.

في النهايـة وجـدتُ رسـمة لأقحوانـات ذهبيـة تُماثـل الموجـودة في كتـاب الشـفرة.

أقـف عـلى أطـراف أصابعـي، بالـكاد أصـل إلى حـرف البرواز.

كان هشًّا، منحوتًا ليُماثل أصابع الخيزران.

كانـت أطرافـه معقوفـة ومعشَّـقة، رفعـتُ الـبرواز مُحـرِّرة السـلك الخلفـي مـن المسـمار الـذي عُلِّـق عليـه، حملـتُ الـبرواز إلى طاولـة الشـاي، حيـث وضعـتُ الشـمعة وجلسـت أتفحَّصهـا.

«إينولا انظري داخل أقحواناتي».

كثـيرًا مـا رأيـتُ أمـي تـبروِز صورهـا، كان الـبرواز

يوضع أولًا على وجهه على المنضدة ثُم الزجاج المنظَّف جيدًا، ثم برواز آخَر داخلي مصنوع من ورقٍ ثخين مصبوغ حيث تلصق في أطرافه الرسمة المائية، ثم في النهاية توضَع قطعة رفيعة من الخشب مدهونة بالأبيض، ومسامير صغيرة جدًّا لتثبيتها في الأطراف لتُبقي كل شيء في مكانه.

في النهاية تلصق أمي ورقةً بنية على الظهر لتُخفي المسامير وتمنع دخول الأتربة.

قلبتُ صورة الأقحوانات على ظهرها، ونظرتُ للورقة البنية، آخُذ نفسًا عميقًا وأغرس أظافري في رُكنٍ محاولة تقشير الورق البني كقطعةٍ واحدة.

ولكن أفشل في ذلك وينقطع شريط طويل بُني، ولكني أتجاهل ذلك وقد رأيتُ شيئًا مُختبئًا في أسفل ظهر الصورة ما بين الورقة البُنية والظهر الخشبي. شيئًا مطويًّا، شيئًا أبيض.

رسالة من أمي.

رسالة تُفسر رحيلها وتُعبر عن ندمها وحُبها، ربما أيضًا ستحمِل دعوةً أن أنضمَّ لها.

بينما قلبي يدقُّ عاليًا: أرجوك، أرجوك، وأصابعي تهتز، التقطتُ الورقة المُستطيلة البيضاء.

وفتحتُها مُرتعشة.

نعـم كانـت رسـالة مـن أمـي، ولكـن لـم تكـن مـا أمَّلـتُ أن أجـده.

كانـت ورقـةً نقديـة صـادرة مـن بنـك إنجلترا تسـاوي مائـة جنيه إسـترليني.

كان ذلـك مـالًا أكـثر ممـا يـراه الشـخص العـادي خـلال عـامٍ كامـل.

ولكن لم تكن الأموال ما أردتُه من أمي.

عـليَّ أن أعـترف أنَّـني ظللـتُ أبـكي حـتى غفـوت، ولكـني غفـوتُ أخـيرًا. نمـتُ حـتى النهـار التـالي، ولـم يُزعجـني أحـدٌ باسـتثناء السـيدة «لـين» الـتي جـاءت مـرةً لتوقظـني متسـاءلةً إذا كنـتُ أشـعر بالمـرض.

أخبرتُها أن: «لا، كنت فقط مُتعبة».

فتركتـني، وسـمعتُها تُخـبر أحدهـم في الأغلـب زوجهـا في الطرقـة.

- إنهـا في حالـة مُزريـة. لا عجـب تلـك الحَمَـل الوديـع.

حـين اسـتيقظتُ في أوائـل الظهـيرة وبالرغـم مـن رغبـتي الشـديدة في كلٍّ مـن الإفطـار والغـداء، لـم أقُـم مـن فـراشي، بـل ظللـتُ ثابتـة، وأجـبرتُ نفـسي

عـلى تقييـم وضعـي بـرأسٍ صـافٍ.

حسـنًا، برغـم أنَّ ذلـك لـم يكـن مـا تمنَّيتُـه، ولكـن الأمـوال كانـت شـيئًا جيـدًا، أمـي قـد تركـتْ لي في السرِّ مبلغًـا كبـيرًا، والـذي حصلـتْ عليـه بـدون شـكٍّ مـن مايكروفـت بطُـرق مُلتويـة. هـل كان مـن المناسـب أن أحتفِـظ بـه؟

لـم تكـن هـذه أمـوالًا مايكروفـت كسَـبَها، ولكـن عـلى حسـب فهمـي؛ هـي أمـوال قُـدِّرت لـه لمجـرد أنـه الابـن البِكـر لأبي.

كان ميراثًـا أرسـتقراطيًّا، قـرون مـن أمـوال الإيجـار، والمزيـد يـأتي كلَّ عـام، ولمـاذا؟ مـن أجـل عزبـة فرنديـل، والأراضي الـتي حولهـا.

الحقيقـة أنَّ المـال كان مثـل الثرايَـات يـأتي مـع المـنزل، والـذي كان مـنزل أُمـي، أو عـلى الأقـل يجـب أن يكـون مـنزل أمـي. قانونيًّـا فـإنَّ الأمـوال لـم تكـن لي ولا لأمـي.

ولكـن أخلاقيًّـا فقـد شرحـتْ لي أمـي الكثـير والكثـير مـن المـرَّات كيـف أن تلـك القوانـين غـير عادلـة، لـو عمِلـت امـرأة لتكتُـب وتنـشر كتابًـا عـلى سـبيل المثـال؛ فـإنَّ كل الكسـب القـادم مـن وراء هـذا الكتـاب مـن

المُفـتـرَض أن يذهـب لزوجهـا. أيُّ حماقـة تلـك؟!

كـم سـيكون مـن الحُمـق إذن أن أُعطـي الأمـوال لأخـي مايكروفـت فقـط لأنـه وُلـد قبـلي؟

يمكـن للقوانـين أن تقفـز في البحـيرة، فقـد قـررتُ أنَّ -أخلاقيًّـا- تلـك الأمـوال لي، أمـي ضحَّـت وكافحـت لانـتزاع تلـك الأمـوال وتركتهـا لي.

لقـد تركـتْ لي أمـي الكثـير مـن الألغـاز، مـا الـذي عـليَّ أن أفعلـه بتلـك الأمـوال؟

كنـتُ بالفعـل أعـرف بشـكلٍ مـا الإجابـة عـلى هـذا السـؤال، وقـد أعطـتْ بذاتهـا مثـلًا.

الفصل السابع

بعد مرور خمسة أسابيع كنتُ مستعدة -في أعين قاطني عزبة «فرنديل»- كنت مُستعدة للذهاب إلى المدرسة الداخلية، ولكن في عقلي كنت مستعدة لمغامرةٍ من نوع آخر.

بالنسبة للمدرسة الداخلية؛ فإنَّ الخيَّاطة كانت قد جاءت من لندن، وأخذت غرفة كانت فارغة منذ فترة، كانت تخصُّ واحدة من الخادمات.

أطلقت زفيرًا عاليا مُحبطًا حين رأت ماكينة الخياطة القديمة، ثم أخذت مقاساتي:

الوسط ٢٠ إنشًا.

كبير جدًّا.

الصدر ٢١ إنشًا.

صغير جدًّا جدًّا.

الفخذان ٢٢ إنشًا.

غير مناسب تمامًا.

ولكن كلًّا يمكن إصلاحه. من مجلة خاصَّة

بالأزياء لم تكن أمي لتسمح بدخولها المنزل أبدًا حدَّدتِ الخياطة عدة إعلانات.

المُكبِّر: مشدٌ مثالي للحصول على الشكل الرفيع المُتقن. لا تستطيع الكلمات أن تَصِف تأثيره الساحر الذي لا يمكن الحصول عليه بأي مِشدٍ آخر في العالم. بطانة رخوة تمزج ما بين النعومة والخفَّة والراحة. يمكن ضبطها حسب رغبة المُستخدِم. تصنع الانحناءات الجميلة. يُرسل المشدُ عن طريق البريد، في طردٍ عادي عند استلام الحوالة، مضمون، ونضمَن إعادة الأموال إن لم يحُزْ على رضاك. احذرْ التقليد.

طُلبت هذا المِشد، وبدأت الخياطة في صناعة فستانٍ مُنطفئ الألوان ذي عنق عالٍ مُخصص لخنقي. وتثُّورة حريرية منفوشة مُمتدَّة على الأرض فأتمكن بالكاد من المشي.

اقترحتْ أن تخيط فستانين بمقاس تسعة عشر ونصف إنش وسط، ثم فستانين بوسط مقاس ١٩ إنش، وآخرَيْن مقاس ١٨ ونصف إنش، وهكذا

دواليك أصغر فأصغر متوقِّعة أن وسطي سيصغُر كلَّما كبرت.

وفي تلك الأثناء صارت برقيَّات شيرلوك هولمز أكثر اقتضابًا تُبلغنا أنه لا أخبار عن أمي.

لقد تتبَّع بعضًا من أصدقائها القدامى، وزملائها الفنانين، ومعارفها، حتى أنه سافر إلى فرنسا ليبحث عن عائلتها المُمتدَّة، عائلة الفيرنيتس، ولكن دون فائدة.

كنتُ بدأت أن أشعُر بالخوف على أُمي مرةً أخرى، لمَّا لم يستطع مُحقق عظيم إيجادها.

ربما وقع لها حادث، أو أسوأ من ذلك؛ جريمة شنعاء.

تغيَّر تفكيري على أي حالٍ في اليوم الذي أنهت فيه الخياطة أول فساتيني. في ذلك الوقت كان مُتوقَّعًا مني أن أرتدي المشدَّ الذي وصل في حقيبةٍ ورقية غير مُعلَّمة، ومُلحق بها نفَّاخ أمامي ونفَّاخ خلفي. بالتأكيد. كان ذلك اختراعًا مسجلًا، وقد وجِد كمُحسِّن أثواب حتى لا يتمكن أبدًا ظهري أن يلامس أي مقعد أجلس عليه، وأيضًا كان مُتوقَّعًا مني أن أعقد شعري ككعكةٍ مُؤمِّنة إيَّاه بالكثير

مـن مشـابك الشـعر الـتي تُغـرَس في فـروة رأسي، مـع خصـلاتٍ مموَّجـة مـن الشـعر الزائـف، مُثبَّتـة بالطريقـة نفسـها. وكمكافـأة لي ارتديـتُ الفسـتان الجديـد مـع حـذاءٍ جديـد يزيـد مـن عـذابي، وصـار عـليَّ أن أتبخـتر في أنحـاء المـنزل كي أتـدرَّب عـلى أن أصـير آنسـةً أرسـتقراطية.

في ذلـك اليـوم أدركـتُ فكـرةً قد تبـدو غـير عقلانية، ولكـن أكيـدة في ذهـني؛ أنـه حيـث ذهبـت أمـي فهـي بالتأكيـد ذهبـت في مـكان لا يوجَـد بـه مشـابك شـعْر، ولا مشـدَّات، ولا مُحسِّـنات أثـواب.

في تلـك الأثنـاء أرسـل أخـي «مايكروفـت» ببرقيـةٍ يُبلغـني أن كل شيء قـد نُسِّـق، وأنـه يجـب عـليَّ أن أكـون حـاضرة (في مدرسـة بيـت الرُّعـب تلـك)، في تاريخ كـذا وكـذا، مرسـلًا تعليمـاتٍ للسـيد «لـين» أن يتأكـد مـن توصيـلي إلى هنـاك.

الأكـثر أهميـة بخصـوص مُغامـرتي؛ أنـه صـار واجبًـا عـليَّ أن أرتـدي تلـك الفسـاتين لأكـبر وقـتٍ ممكـن في جميـع أنحـاء المـنزل.

زاد وقـت بقـائي في غرفـتي، مُغلقـة عـلى نفـسي بابها، لأنـام أغلـب الوقـت، محاولـة التقليل مـن توتري.

السيدة «لين» التي تعرِض عليَّ جيلي الكوارع وأطعمةً مُشابهة قلقتْ من العجائب الصغيرة التي صرتُ أرفضها؛ أصبحت قلقةً عليّ كثيرًا حتى أنها تواصلت مع «مايكروفت»، الذي طمأنها أنَّني في المدرسة الداخلية سأفطر الشوفان، وأرتدي الصوف، وذلك سيجعلني أستعيد صحَّتي.

بالرغم من ذلك فقد قامت باستدعاء الصيدلي المحلي، وبعدها استدعتْ طبيب شارع «هيرلي» قادمًا من لندن. لم يقُل أيهما أي شيءٍ ألمَّ بي.

في الحقيقة أنني كنتُ أختلي بنفسي في غرفتي مُتجنِّبة المشدَّات ومشابك الشعر والأحذية الضيقة، وكل ما شابه، وأعوِّض الكثير والكثير من النوم؛ فلم يكن أحد يعرف أنَّ كل يومٍ -بعد أن أتأكد أنَّ الجميع قد ذهبوا إلى النوم- كنت أقوم لأعمل على كتاب الشفرة، خلال ساعات الليل، كنتُ أستمتع بالشفرات رغم كل شيء، كوني أحب أن أعثُر على الأشياء المَخفية، وشفرات أمي وفَّرت لي ذلك بطُرق جديدة.

في البداية أكتشف المعاني المُختبئة، ثم الكنز. كل شفرةٍ أكشفها تقودني إلى غرف أمي لأبحث عن أسرارٍ أخرى قد تركتْها لي.

بعض الشفرات لم أستطع حلَّها، مما ثبَّطني، حتى أنني فكرت أن أنزع كل اللوحات المائية المعلقة في غرفة أمي وأمزق ظهرها، ولكن لم يبدُ ذلك حلًّا مناسبًا.

أيضًا كان هناك الكثير والكثير والكثير من تلك اللوحات، والأكثر من ذلك أنه لم تكن كل تلك الشفرات توجهني إليهم، فعلى سبيل المثال كان هناك صفحة في كتاب الشفرات مُزينة باللبلاب، مُمتد على سور حديقة، على الفور ودون حتى أن أنظر إلى الشفرة تسللتُ إلى غرف أمي بحثًا عن لوحة مائية بها لبلاب، وجدت اثنتين ومزَّقت ظهرهما دون أن أجد أي شيءٍ قبل أن أعود مُحبَطة إلى غرفتي لأواجه الشفرة.

AOEOLIMESOK

LNKONYDBBN

ماذا بحق السماء؟ بحثتُ عن معنى اللبلاب في كتاب معاني الزهور، وجاء معنى «الإخلاص»، اللبلاب المعلق أنه يمثل الإخلاص، برغم المعنى

المؤثر، لم يُفدني ذلك بشيء. عبثت بالشفرة لفترةٍ قبل أن أستطيع أن أجد اسمي في أول ثلاثة حروف من السطر الأعلى مضافًا إليها حرفان من الصف الأدنى، ثم لاحظت كيف رسمت أمي اللبلاب على شكل زجزاجٍ بطريقة غير طبيعية، وأيضًا أن الزجزاج الذي رسمتْه كان ينمو من اليمن إلى اليسار.

مُتبرِّمة اتبعتُ نفس النمط، وأعدتُ كتابة الشفرة

KNOBSBEDMYINLOOKENOLA

KNOBS BED MY IN LOOK ENOLA

كان الناتج حين أقرأه من اليمين إلى اليسار:

ENOLA LOOK IN MY BED KNOBS

إينولا ابحثي في أعمدة سريري

ذهبت مرة أخرى على أطراف أصابعي، تحت رداء الليل، لأنزع المقابض المستديرة التي تغطي أعمدة السرير النحاسية، وداخل تلك الأعمدة اكتشفت كمية مهولة من الأوراق المالية.

كان يجب عليَّ بدوري أن أجد مكانًا ذكيًّا لأُخبئ تلك الأموال في غرفة نومي، لا يمكن إيجاده خلال غزوات السيدة «لين» بمنفضة الأتربة. كانت حاملة الستائر في غرفتي مصنوعةً من عمودٍ نحاسي مثل أعمدة سرير أمي، وأيضًا كان هناك مقبضان في نهايته. استطعتُ أن أستخدمهما في إخفاء الأموال، وتمكنت من فعل ذلك قبل استيقاظ السيد والسيدة «لين».

كانت لياليَّ أكثر نشاطًا من نهاراتي، لم أجد أبدًا أكثر ما تمنيت، أي رسالة وداع، أي تفسير من أمي، ولكن في الحقيقة عند تلك النقطة لم تكن هناك أي حاجة للتفسير، علمتُ أنها كانت تقوم بذلك الخداع من أجلي، أو جزء منه على الأقل كان من أجلي، وعرفت أن الأموال التي خبَّأتْها لي بذكاء كانت من أجل أن تعطيني حريتي.

بفضل أمي كان يملؤني الأمل والقليل من التوتر في ذلك الصباح المُشمس في أواخر أغسطس، وأنا أركب في عربة الخيل التي ستأخذني من البيت الوحيد الذي عرفته.

قد نسَّق السيد «لين» مع مُزارع محلي أن يستعير حصانًا وعربة من أجلي ومن أجل السائق

حتى أصل إلى محطة السكة الحديدية في راحةٍ وإن لم يكن في أناقة.

- أتمنَّى ألا تمطر.

علقت السيدة «لين» وهي تقِف أمام مدخل المنزل لتودِّعني.

لم تُمطر لعدة أسابيع، منذ اليوم الذي ذهبتُ فيه للبحث عن أمي.

قال السيد «لين»: على غير المرجَّح.

وهو يمدُّ يده ليُساعدني في الصعود إلى العربة كسيدةٍ أرستقراطية. ويده الأخرى تحمل لي مظلَّةً بيضاء مُكشكشة.

- لا توجَد سحابة واحدة في السماء.

ابتسم السيد والسيدة «لين» وأنا أضع رفد فستاني أولًا في المقعد الخلفي ليملأ معظم المساحة، وكان «ديك» يجلس في المقدمة كسائق.

كانت السيدة «لين» قد نسَّقت شعري، ليكون معقوصًا للخلف كما هي الموضة، ولأتمكن من ارتداء قُبعة ليبدو رأسي كطبق عشاء من القش، وقد مالت القُبعة إلى الأمام قليلًا فوق عينيَّ.

ارتديتُ بذلة نسائية رمادية داكنة اخترتها بعناية

لتكـون غـير مُفـسِّرة لتفاصيـل الجسـد، كان اللـون قبيحًـا بالفعـل، بمقـاس وسـط ١٩ ونصـف إنـش وتنُّورة كاملـة. تخفـي الوسـط سُـترة طويلـة، وقـد اسـتغللتُ ذلـك بفتـح أزرار التنُّـورة حـتى أتمكـن مـن التنفُّـس.

قـال السـيد «لـين»: تبديـن كسـيدة أرسـتقراطية يـا آنسـة إينـولا.

ثـم تحـرك للخلـف وهـو يكمـل: سـتكونين مصـدر فخـر لعزبـة فرنديـل، أنـا واثـق مـن ذلـك.

لم يكن يعلم.

بصـوتٍ مرتعـش جـاء صـوت السـيدة «لـين»: سنشـتاق إليـك.

وللحظـة فـإنَّ قلـبي عاتبَـني وأنـا أرى الدمـوع تنسـاب عـلى وجههـا العجـوز الغـض.

- شكرًا.

قلتُهـا بجمـودٍ مُحاوِلـةً أن أتمالـك مشـاعري: ديـك، انطلـق.

طـوال الطريـق إلى البوابـة كنـت أحملـق في أذن الحصـان، أخـي مايكروفـت كان قـد اسـتأجر رجـلًا لتنظيـف المـرج، ولـم أرِد أن أرى شـجيرات الـورد البريـة وقـد قُطعـت.

- وداعًا يا آنسة إينولا، حظ سعيد.

قالها الحارس كوبر، وهو يفتح لنا البوابة.

- شكرًا يا كوبر.

قلتُها والحصان يتبختر عبر كينفرود.

أطلقـت زفـيرًا وسـمحتُ لنظـري بتصفُّـح الأنحـاء آخـذة نظـرة وداع لمَحـل الجـزارة ومحـل الخـضراوات، والعـوارض السـوداء، والأكـواخ البيضـاء، والحانـة، ومكتـب البريـد، ومركـز الشرطـة، وأكـواخ أخـرى ذات نوافـذ صغـيرة، والـنُّزل، والحـداد، ومقـر الكاهـن، والكنيسـة الجرانيتيـة ذات السـقف المُغطَّـى بالطحالـب، وشـواهد القبـور المائلـة في المقـبرة...

تركتُنْـا نتحـرك بعيـدًا عـن المقابـر قليـلًا قبـل أن أقـول فجـأة، وكأن الفكـرة داهمتـني في التـو: ديـك توقـف. أرغـب في أن أودع أبي.

أوقـف الحصـان، وسـألني: مـاذا قلـتِ يـا آنسـة إينـولا؟

حين تتعامل مع «ديك» فواجب عليك أن تفسِّر حتى أبسط الأشياء.

- أرغب في زيارة قبر أبي.

قلتُ له بصبر، تاركة مسافة بين كل كلمة.

- وأن أتلو صلاةً عليه في مقابر الكنيسة.

أبي العزيز، لم يكن ليرغب في صلاة مثل تلك، كان مُؤمنًا بالمنطق، ولا شيء سواه. أمي قالت لي في مرة أنه لم يرغب حتى في جنازة، كانت رغبته أن تُحرق جثته، ولكن بعد وفاته، تم تجاهل رغبته خوفًا من أن يتسبَّب ذلك في فضيحة لا تُغتفر ترجُّ أصداؤها أنحاء كينفورد.

بطريقة حديثه البطيئة قال ديك بقلق: يجب عليَّ أن أوصلك لمحطة القطار يا آنسة.

- هناك الكثير من الوقت، يمكنك أن تذهب إلى الحانة لتشرَب كوبًا في انتظاري.

- حسنًا إذن.

أدار الحصان وعاد إلى باب الكنيسة، وجلسنا للحظاتٍ قبل أن يتذكر أن من المفترض عليه أن ينزل ليفتح لي الباب ويُساعدني على النزول.

- شكرًا.

قلتُ له وأنا أسحب يدي المكسوَّة بالقفاز الأبيض:

- عُد لتصحبني بعد عشر دقائق.

كلام فارغ بالطبع، كنت أعرف أنه لن يقضي في الحانة أقلَّ من نصف ساعة.

- بالتأكيد يا آنسة.

قالها مُحيِّيا إياي، بأن أمال قُبعته قليلًا.

انطلق بعيدًا، ومن بين دوَّامة التنانير استطعت أن أدخل إلى باحة الكنيسة.

كما توقَّعت وتمنيت وجدتُ أنها خالية.

بعد أن مسحت بعيني المقاعد الفارغة، ارتسمت البسمة على وجهي. ألقيت بمظلتي في صندوق التبرعات، وثنيت تنُّورتي فوق الركبة، وانطلقتُ راكضة عبر الباب الخلفي إلى ساحة المدافن المُشمسة.

عبر الطرق المتعرِّجة اتَّخذت طريقي من وسط شواهد القبور، ركضت حريصة على أن تظلَّ الكنيسة في ظهري مُخفية إيَّاي عن أعين الشهود الذين يمرُّون من شارع القرية الواسع.

حين وصلت إلى نهاية أراضي باحة الكنيسة قفزتُ

مـن فـوق السـور الصغـير، اتجهـت يمينًـا وركضـت قليـلًا، ثـم كانـت هنـاك بالفعـل في انتظـاري درَّاجـتي الـتي أخفيتُهـا بـين الشـجيرات ليلـة أمـس في سـاعات الليـل عـلى ضـوء القمـر المكتمـل.

عـلى ظهـر درَّاجـتي كنـت قـد ربطـتُ صندوقـين أحدهمـا في السـلة الأماميـة، والآخـر في الخلـف. كلاهما مـليء حـتى آخـره بالشـطائر والمخلَّـلات والبيـض المسـلوق وزمزميـة ميـاه، وضمَّـادات في حالـة وقـوع حادثـة، وعـدة تصليـح إطـارات، ورداء النيكيربوكـرز، وحـذائي الأسـود المُريـح القديـم، وفُرشـة أسـنان وأشـياء أخـرى.

وأخفيـت صندوقـين آخريـن مُخبَّأيـن تحـت ملابـسي حـول جسـدي، واحـد عـلى صـدري، والآخـر خلفـي؛ الأمامـي كان مُحسِّـن ملابـس صنعتـه بنفـسي مـن مواد أخذتهـا مـن غرفـة أمـي، وواحـد يُماثلـه في الخلـف.

لمـاذا حـين تركـتْ أمـي المـنزل ارتـدت مُحسِّـن ملابـس ولكنهـا تركـت اللبـادة؟

كانـت الإجابـة واضحـة لي، فقـد حشَّـتْ في ذلـك المُحسِّـن الأمتعـة اللازمـة الـتي احتاجتهـا للهـروب.

وحيـث إن الله قـد أنعـم عـليَّ بصـدر مسـطح فقـد

قلَّدتها؛ بل استطعت أن أطوِّر من الحيلة؛ فكل مُحسِّنات الملابس وحشوات الأرداف قد تركتها ورائي في عزبة فرنديل، وقد حشوت كل الأجزاء التي يمكن حشوها في ملابسي الداخلية، والأموال التي وجدتها، وبالإضافة إلى ذلك فقد طويتُ بحرص فستانًا آخر قد اخترته ووضعته ما بين سترتي وثوبي، وفي جيوبي فقد وضعت المناديل وصابونًا وفرشاة شعر، ومشطًا، وأيضًا كتيب الشفرات الغالي، وبعض النشادر، وبعض الحلويات الغنية بالطاقة. بالفعل قد استطعت أن أضع ما يُساوي حمل صندوق من الأساسيات.

قافزةً على درَّاجتي بدَّلتُ عبر الأرياف. سائق الدرَّاجات الجيد لا يحتاج إلى طريق.

سأتبع الممرات الزراعية، والأراضي الرعوية في الوقت الحالي؛ حيث كانت الأرض صلبةً كالحديد؛ فلن أترك أي آثارٍ خلفي.

حين يأتي الغد أتخيل أن أخي المُحقق العظيم شيرلوك هولمز سيحاول أن يعثُر على أخته المفقودة أيضًا. سيتوقَّع أني أهرب منه؛ لذلك فإني لن أفعل ذلك، بل سأهرب في اتجاهه، كان يعيش في لندن هو ومايكروفت، ولذلك السبب،

ولأنها أخطر وأكبر مدينة في العالم؛ ستكون آخِر مكان يتوقعون أن أغامر بالذهاب إليه، ولذلك سأفعل.

سيتوقَّعون أن أتنكَّر كصبي، وفي الغالب قد سمعوا عن حُبي لارتداء النيكربوكرز، وفي مسرحيات شكسبير والأعمال الخيالية الأخرى فإنَّ الفتيات الهاربات دائمًا ما يتنكرنَ كصبيان، ولذلك لن أفعل.

سأتنكَّر على هيئة آخِر شيء يتوقَّعه أخواي، وقد قابلاني كطفلةٍ ترتدي فستانًا بالكاد يغطي ركبتيها.

سأتنكَّر في صورة امرأة ناضجة، وبعدها سأذهب لأجد أمي.

الفصل الثامن

كان باستطاعتي أن أقود الدرَّاجة مباشرة إلى لندن مستخدمة الطريق الرئيسي، ولكن ذلك لن يصلح؛ سيَراني العديد من الأشخاص.

لا، خُطتي للوصول إلى لندن كانت ببساطة -وبمنطقية على ما آمُل- هي ألا يكون لديَّ خطة. فإذا كنت أنا ذاتي لا أعرف ما الذي أفعله، فكيف بأخويَّ أن يُخمنا؟

سيضعان احتمالات بالطبع، سيقولان أُمنا أخذتها من قبل إلى مدينة «باث»، فربما ذهبت إلى هناك، أو سيقولان في غرفتها يوجد كتاب عن مدينة «ويلز»، وهناك علامات بالقلم الرصاص على الخريطة، ربما ذهبت هناك.

أمَّلت أن يجدا الكتاب الذي وضعتُه في بيت الدُّمى كدليل مُزيف، بينما كتاب معاني الزهور خبأته بين مئات الكتب في المكتبة في الدور السُّفلي؛ حيث إنه ضخم جدًّا، كي أحمله معي.

مايكروفت وشيرلوك سيستخدمان تحليلهما

الاستنباطي؛ لذا فقد قدَّرت أنه يجب أن أثق في الحظ، سأترك الأراضي تقودني ناحية الشرق، وسأختار الأراضي الصخرية الصلبة كي لا تظهر آثار إطارات الدرَّاجة عليها على الأقل.

لم يهم أين سأجدني في نهاية اليوم، أو اليوم الذي يليه. سوف أتغذى على الخبز والجبن، وسأنام في الخلاء كالغجَر، وفي النهاية سأقابل شريط السكة الحديد، وباتباعه بطريقةٍ أو بأخرى، سأجد محطةً وطالما تلك المحطة ليست محطة «تشيسورليا» حيث سيذهب أخواي بالتأكيد للتحقيق؛ فأي محطة في إنجلترا ستكون مناسبة حيث إن كل خطوط السكك الحديدية تمرُّ بلندن.

وداعًا للخصر قياس ١٧ إنش، وإفطار الشوفان، وحصر حياتي حول فرص الزواج، لتصير تلك هي الإنجازات الأهم لتصنع منِّي سيدة أرستقراطية.

تلك كانت أفكاري السعيدة وأنا أبدِّل بجوار مرعى البقر، على طول مَمرٍّ عشبي حتى وصلت إلى أراضٍ مفتوحة، بعيدًا عن الريف الذي أعرفه.

في السماء الزرقاء المُمتدة فوق رأسي كانت الطيور تغني مثل قلبي.

وحيث إنني كنت أستخدم الطرق الجانبية، وأتجنَّب القرى؛ لم يرَني أشخاص كثيرون.

كل حين وآخر كان يرفع مُزارع رأسه من حقل اللفت دون اندهاش من مرأى امرأة أرستقراطية على دراجتها، فقد كانت هواية ركوب الدرَّاجات قد ازدادت انتشارا في الآونة الأخيرة، حتى إني التقيتُ بواحدة أخرى ترتدي اللون الرمادي على مسار الحصى، هززْنا رأسينا كلٌّ منَّا للأخرى، وقد بدا أنها تتوهَّج من الحرارة والتمرين.. أنت تعلم فإنَّ الخيول تعرق، والرجال تنضح، بينما النساء تتوهَّج.

أنا متأكدة من أنني كنت مُتوهجة أيضًا، شعرتُ بكل قطرات الوهَج تنساب على جوانبي تحت المشد الذي كنتُ أرتديه.

كانت الأجزاء المعدنية الممتدة تحت ذراعي تزعجني بشدة.

في الوقت الذي انتصفت فيه الشمس في كبد السماء؛ شعرت أنني مستعدة للتوقف من أجل الغداء، زاد تعبي أنني لم أكن قد نمتُ الليلة التي سبقتها.

جالسة تحت شجرة الدردار، على وسادة من الطحالب أردتُ بشدة أن أُمدد وأن أتوسَّد الأرض قليلًا، ولكن بعد أن أكلت، أجبرت نفسي على أن أصعد على درَّاجتي مرة أخرى، لأبعد أكبر مسافةٍ ممكنة قبل أن تبدأ المطاردة.

بعد ظهر هذا اليوم، وعلى ذِكر الغجر؛ قابلت قافلةً من قوافلهم كانت عرباتهم ذات ألوان فاقعة، وعليها الكثير من الرسومات.

كان مُعظم النبلاء يحتقرون الغجَر، ولكن أُمي كانت تسمح لهم في بعض الأحيان بالتخييم والاستراحة في عزبة «فرنديل»، وفي طفولتي كنتُ حقًّا مبهورة بهم.

حتى الآن، قد أوقفت درَّاجتي لأراقبهم وهم يمرُّون، محدقة في خيولهم الملوَّنة، التي كانت تتبختر بخطواتٍ عالية، ويهزُّون رءوسهم بالرغم من الحرارة.

وكان السائقون يحثونهم على الحركة للأمام. لوَّحت للمسافرين في عربات الغجر دون خوف. فمن كل الأشخاص على وجه البسيطة؛ فإن الغجر سيكونون آخِر من يتحدَّث للشرطة عني.

تجاهلني الرجال، ولكنَّ بعضًا من النساء عاريات الرأس والرقبة والأذرع رددنَ لي التحية، وكل الأطفال لوَّحوا.

كانت السيدة «لين» تدعوهم مُتسوِّلين ولصوصًا وقذِرين، أعتقد أنها قد تكون مُحقَّة، ولكن لو كنت أحمل بعض البنسات في جيبي، لألقيتُ لهم بها على الفور.

أيضًا في ذات الظهيرة على طريق ريفي، قابلتُ بائعًا متجولًا، كانت عربته مليئة بالأواني والمظلات والسلال والإسفنج، وأقفاص العصافير، وألواح الغسيل، وكل أنواع الخردوات.

أوقفته، وطلبتُ منه أن يُريني كل ما لديه ليبيعه. بداية من الغلايات النحاسية، وحتى أمشاط الشعر المصنوعة من أصداف السلاحف، حتى أُخفي نيَّتي الحقيقية لشراء الشيء الذي احتجتُه حقًا، وهو حقيبة سفر مصنوعة من قماش السجاجيد.

ووضعتها على ذراع الدراجة، وانطلقتُ في طريقي.

رأيتُ عابري سبيل آخرين في طريقي، بعضهم سائرًا، وآخرون في عربات متنوعة؛ بدءًا من العربات

المُغطاة بالمخمل، وصولًا إلى العربات التي تجرُّها الحمير. ولكن ذاكرتي بدأت تخبو وقد أنهكها التعب.

حينما جاء المساء، كان كلُّ جزءٍ في جسدي يتألَّم، وشعرت بالتهالك كما لم أشعر من قبل في حياتي.

أمشي الآن على آثار العشب الذي التهمتْه الأغنام، وأنا أدفع دراجتي بجواري وأتكئ عليها في نفس الوقت.

عانيتُ وأنا أصعد تلَّة منخفضة كان فوقها بستان من الزان، ما إن وصلت لظلال الأشجار حتى تركتُ دراجتي لتقع في مكانها.

بينما انهرتُ أنا راميةً بنفسي على التراب وأوراق الأشجار، وقد كانت معنوياتي على الدرجة نفسها من الانخفاض في المساء برغم أنها كانت في أوْجها هذا الصباح.

وتساءلتُ هل سأستطيع أن أجد بداخلي القوة لركوب الدراجة والانطلاق مرةً أخرى في الصباح؟

أستطيع أن أنام حيثما ارتميت، ولكن ولأول مرة أفكر: وماذا لو أمطرت؟ كانت خطتي ألا أضع خطةً تبدو وكأنها كانت خطة حمقاء وتزداد حماقتها مع

كل نفَس تتنفَّسه.

بعد أن غرقتُ في اليأس لفترةٍ تمكَّنت من أن أشدَّ من هِمتي وأقوم. وفي الخفاء والظلام نزعت قبعتي، وبِنس شعري، والأمتعة التي حملتها حول جسدي، وفككتُ مشدَّ العذاب، وكنت مُنهكة جدًّا لأفكر حتى في الطعام.

ارتميتُ على الأرض مرة أخرى، مُرتدية تنورتي، ومستخدمة البذلة الرمادية الملوَّثة بالطين، كغطائي الوحيد، ونمتُ خلال لحظات.

استيقظتُ مرة أخرى في وقتٍ متأخِّر من الليل، وقد اعتادت ساعتي البيولوجية على هذا الروتين ممَّا فعلته في الأيام الماضية، ولم أكن أشعر بالنعاس، ولكني شعرت بجوع شديد.

لم يكن هناك قمر في السماء، فالغيوم كانت قد أخفت القمر، ويبدو أنها قد تمطر بالفعل، وبدون ضوء القمر أو حتى ضوء النجوم لم أتمكن من أن أرى حتى لأجد الطعام الذي عبَّأتُه، وتركتُه في صندوق الدراجة، ولم أستطع حتى أن أجد أيضًا عبوة الكبريت التي تركتُها بغباءٍ في المكان ذاته.

سأعتبر نفسي محظوظةً إن استطعت أن أتعثَّر في الدراجة في ذلك الظلام الحالك.

- اللعنة!

تمتمتُ بدون حياء وقد شعرت أن أغصان الزان تخدش وجهي وتنتش ملابسي بمجرد أن حركت قدميَّ، ولكن في اللحظة التالية كنتُ قد نسيت الطعام تمامًا، ووقفت أحدق بمسافة ليست ببعيدة حيث إني رأيتُ أضواء.

مصابيح غاز.

لمحتُها تأتي من بين جذوع الأشجار، على قمة التل. كانت تلمع في تلك المسافة مثل نجومٍ تدور حول الأرض.

قرية، لقد صعدتُ على قمة التل من ناحيةٍ دون أن أدرك من كثرة تعبي أنَّ هناك قرية تقع على الجانب الآخر.

ربما كانت مدينة كبيرة بما يكفي ليكون لديها مصابيح غاز. ربما مدينة لدَيها محطة سكة حديد!

وفي نفس اللحظة التي جاءت تلك الفكرة في رأسي جاء معها عبر الظلام صوت صافرة قطار طويلة.

في الصباح الباكر جدًّا جدًّا تسللتُ من غابة

الـزان في وقـت مبكـر جـدًّا آمِلـة ألا يلاحظـني إلَّا أقـل عـددٍ مـن النـاس. لـم أكـن قلقـة أن يتعرَّفـني أحدهـم، ولكـن كان سـيبدو غريبًـا أو مُسـتغربًا أن أرملـةً ترتـدي ملابـس أرسـتقراطية عـلى قدَميهـا حاملـة حقيبـة السـفر خارجـة مـن الأحـراش.

نعـم أرملـة، فمـن رأسي حـتى أخمـص قدمـي ارتديـتُ لبـاس حـداد أسـود كنـتُ قـد أخذتـه مـن خزانـة أمـي، في ذلـك الـزي يفـترض المراقـب أنـني تزوَّجـتُ ويُضيـف لعمـري عـشر سـنوات أو أكـثر. ويسـمح لي أيضًـا أن أرتـدي حـذائي الأسـود القديـم المريـح، والـذي لـن يلاحظـه أحـد. وأسـتطيع عقْـص شـعري للخلـف عـلى شـكل كعكـة بسـيطة أسـتطيع صنعهـا بنفـسي. وأفضـل مـا في الأمـر أنـه يجعلـني غـير قابلـة للتميـيز تقريبًـا.

وعـلى حافـة قُبعـتي السـوداء كان هنـاك حجـاب أسـود كثيـف يلـفُّ حـول رأسي بالكامـل؛ حيـث بـدوتُ كأني ذاهبـة لأغـزو مُـربَّى نحـل. وحرصـت عـلى ارتـداء قفـازٍ جلـديٍّ أسـود، لأغطـي غيـاب خاتـم الزفـاف.

منـذ عـشر سـنوات أمـي كانـت أرفـع؛ لـذا فـإن فسـتانها ناسـبني دون أن أحتـاج إلى شـد المشـد لمقـاسٍ أضيـق.

في الحقيقة إن المشد لم يكن له فائدة على الإطلاق سوى أنه يساعدني على حمل الأمتعة التي أخفيها على جسدي.

كل ما حملته على دراجتي أحمله الآن داخل حقيبة السفر، وما تبقَّى موضوع في جيوبي.

ولأن أمي كانت تكره حمل الحقائب الصغيرة؛ فقد كانت تحرص على أن تحتوي فساتينها على عددٍ كافٍ من الجيوب، لتضع فيها المناديل القماشية، وقطرات الليمون، والنقود المعدنية، وما ماثل.

السلام على رأسها العنيد المُستقل، والذي كان السبب أيضًا في تعليمي ركوب الدراجة.

كنت أشعر بالأسى أنني اضطررتُ للتخلي عن دراجتي العتيدة، بين أشجار الزان، ولكني لم أندم على الإطلاق عن التخلي عن تلك البدلة القبيحة.

في ضوء الفجر الرمادي تسللتُ من التل العالي الذي يحيط بالمدينة، قد كان أمرًا متعبًا جدًّا، خاصة مع مجهود ليلة أمس، ولكني أدركتُ أن تلك الأوجاع والآلام كانت نعمة؛ حيث إنها أجبرتني على المشي ببطءٍ أكثر لأبدو أكثر وقارًا، وأتماشى مع تنكُّر الأرملة الأرستقراطية.

شـققتُ طريقـي عـلى طـول ممـرِّ الحـصى الـذي يـؤدي إلى المدينـة.

ترتفـع الشـمس في شروقٍ باهـت، يُهـدد بالأمطـار، وكان أصحـاب المتاجـر يفتحـون حوانيتهـم، وبائـع الثلـج يسـتعدُّ للقيـام بجولاتـه، وخادمـة متثائبـة تلقـي بمحتويـات دلـوٍ في المـزراب، وامـرأة أخـرى رثَّـة الثيـاب تعـبُر الطريـق، وبائعـو الصحـف تتكـدَّس أمامهـم الإصـدارات الصباحيـة عـلى رصيـف، وبائـع ثقـاب يجلـس في ركـن، يـصرخ: قـال الـرب ليكـن نـور فـكان النـور، أعـواد ثقـاب يـا سـيدي؟

بعـضٌ ممـن مـرُّوا بجـواره كانـوا أرسـتقراطيين، نُبـلاء، يرتـدون القُبعـات الطويلـة، وآخـرون كانـوا عمَّـالًا، ولكنـه حـين يوجـه حديثـه لأي منهـم كان يحدثهـم كلهـم كنبـلاء.

لـم يحـاول أن يبيعـني أعـواد ثقـاب بالطبـع، فالسـيدات الأرسـتقراطيات لا يُدخـنَّ.

حـروف ذهبيـة مرسـومة عـلى بـابٍ زجاجـي كتـب عليهـا (بلفديـر تونسـوريون) بجـوار عمـود مخطـط باللونـين الأحمـر والأبيـض.

لقـد سـمعت عـن بلـدة بعيـدة عـن (كينفـورد)

تُسمى (بلفدير).

أنظر من حولي لأجد محفورًا على عتب مبنًى حجري فخم؛ بنك (بلفدير) للادخار. جيد جدًّا. لقد حققتُ هدفي.

فكرتُ في ذلك وأنا أشقُّ طريقي بين فضلات الخيول، أنني أحسنت صنعًا بالنسبة لفتاة صغيرة ذات جمجمةٍ محدودة القدرات.

«بصل، بطاطس، جزر، أبيض» نادى رجل يدفع بعربة خشبية.

«قرنفل جديد لعروة سترات النبلاء» صرخت امرأة تحمل سلَّةً من الزهور.

«اختطاف مروع، اقرأ الآن» انطلق صوت الصبي الذي يبيع الصحف.

اختطاف؟

«الفيسكونت تويكسبيري» اختُطِف من عزبة «باسيل ويذر».

كنت أريد حقًّا القراءة عن ذلك، ولكن يجب عليَّ أولًا أن أجد محطة السكة الحديدية.

واضعة ذلك في اعتباري، اتبعت رجلًا يرتدي قبعةً طويلة، ومعطفًا طويلًا، واضعًا زهرة قرنفل

في طية ملابسه الرسمية. ربما كان ذاهبًا إلى المدينة اليوم.

تأكدت فرضيَّتي ما أن سمعت تصاعد صوت المحرك الذي هزَّ هديرُه الرصيف من تحت حذائي. ثم رأيتُ سقف المحطة وأبراجها، وتمكنت من قراءة الساعة.

كنَّا ما نزال في السابعة والنصف، وسمعتُ أنين المكابح، والقطار يتوقَّف أثناء دخوله المحطة.

سواء كانت وجهة هذا الرجل لندن أم لا، فأنا لن أعرف أبدًا؛ حيث إنَّنا ما إن اقتربْنا من رصيف المحطة حتى استرعى انتباهي المشهد الذي يتكشَّف هناك.

تجمهر حشد مُذهل، وشكَّل عدد من رجال الشرطة خطًا لإبقاء المتفرجين في الخلف بعيدًا بينما تقدم الأكثر أهمية مُرتدين أزياءهم الزرقاء إلى الأمام للقاء القطار الذي وصل حديثًا. كان القطار عبارة عن مُحرِّك يسحب سيارةً واحدة خلفه على جانبها كُتب «قطار الشرطة السريع». منه خرج عدة رجال يرتدون عباءات السفر، وقد كانت تلك العباءات مُثيرة للإعجاب، ولكن غطيان الرأس التي كانوا يرتدونها، والتي كان يتصل بها

سـدَّادات أذن مرفوعـة بـدت وكأنهـا آذان أرانـب.

سخيفة جدًّا.

كنـتُ أفكـر في ذلـك وأنـا أتجـه إلى شـباك تذاكـر المحطـة.

وكأني دخلـتُ إلى قِـدْر يغـلي وقـد تفجـرت الأصـوات المتحمسـة مـن حـولي.

- إنهـم إسـكوتلاند يـارد بالتأكيـد، فالمُحققـون يرتـدون الملابـس المدنيـة.

- سمعتُ أنهم أرسلوا «شيرلوك هولمز» أيضًا.

يا إلهي! توقفت في مكاني لأستمع باهتمام.

- ولكنـه لـم يـأتِ، لقـد اعتـذر قائـلًا لظـروفٍ عائليـة.

مـرَّ المُتحدِّثـان مـن جانـبي، ولـم أسـتطع سـماع بـاقي حديثهمـا عـن أخـي، ولكـن كان هنـاك آخـرون يتحدَّثـون.

- ابنـة عمـي هـي المسـاعدة الثانيـة لخادمـة الطابق العلـوي في المـنزل الكبير...

- يقولون إن الدوقة قد جُنَّت تمامًا.

- وتقول أيضًا...

- والدوق مناسب للزواج الآن...

- في البنك يقولون إنهم ما يزالون ينتظرون طلب الفدية.

- من سيريد هذا الفتى لو لم يكن من أجل فدية؟

آه.. يبدو أن حادثة الاختطاف تلك قد وقعت بالقرب من هنا، بالتأكيد.

وهي تراقب المُحققين وهم ينحشرون في عربة خيل جميلة، ثم يتَّجه الخيل ناحية المُتنزَّة الأخضر القريب من محطة السكة الحديدية.

من فوق الأشجار ارتفعت الأبراج القوطية الرمادية، التي عرفتُ من الأحاديث حولي أنها عزبة «باسيل ويذر»، ولكن قبل أي شيء يجب عليَّ شراء تذكرة.

ومع ذلك وفقًا للجدول الزمني الكبير المعلق على جدار المحطة؛ فهناك وفرة في القطارات المتجهة إلى لندن. هناك قطار كل ساعة تقريبًا طوال اليوم حتى المساء.

«ابن الدوق اختفى... اقرأ الخبر...».

صرخ بائع الصحف الواقف تحت جدول القطارات.

رغم أنَّني لا أومن بالمُصادفات، إلَّا أنني أتساءل كيف أن القَدر قد وضعني هنا في مسرح الجريمة، بينما أخي المُحقق العظيم في مكانٍ آخر.

جنحت أفكاري بعيدًا حتى أصبحت جاذبية القصة لا تقاوَم. مُتخلِّية عن محاولتي للوصول لشباك التذاكر؛ فقد ابتعتُ الصحيفة بدلًا من ذلك.

الفصل التاسع

في مقهًى بجوار محطة قطارات بلفدير جلست أمام طاولة جانبية مواجهة للحائط حتى أستطيع رفع غطاء وجهي.

احتجتُ أن أفعل ذلك لسببين؛ لأتناول فطوري، ولأتأمَّل صورة «ڤيسكونت تويكسبيري من باسيلويذر».

كانت تحتل صورته نصف الصفحة الأولى من الصحيفة، صورة رسمية مصوَّرة في استوديو أظهرت الصبيَّ مُرتديًا المخمل المزخرف.

يا إله السماوات.

تمنَّيتُ ألَّا يكون مجبرًا على ارتداء تلك الملابس كل يوم، ولكن أي شيء آخر يمكن أن يرتديه بشعرٍ منساب مثل ذلك؛ طويل، ومتموِّج جرَّاء استخدام بكرات شعر بالتأكيد، يُغطي كتفَيه. كل الشواهد تؤكد أن والدته قد وقعت في حُبِّ ذلك الكتاب اللعين (اللورد الصغير فونت ليروي)، فذلك الكتاب اللعين مسئول عن عذاب جيلٍ كامل من

أبناء النبلاء، من وُلدوا في قمة شهرة موضة (فونت ليروي).

كان اللورد الصغير يرتدي خُفَّين جلديين، وجوارب بيضاء، وبنطالًا مخمليًّا ذا ركبة مخملية سوداء، مع أقواس ستان في كلا الجانبين، ووشاحًا من الستان يظهر تحت سترة سوداء مخملية تحتها ياقةٌ بيضاء.

كان يحدِّق إلى الكاميرا دون أي تعبيرٍ على وجهه، ولكن خُيِّل لي أني أرى آثار تصلُّبٍ حول فكِّه.

وريث الدوق الصغير مفقود بشكل مروع

صرخ العنوان بتلك الكلمات.

أمدُّ يدي لقطعة الكعك الثانية، وأنا أقرأ:

في مشهد مُثير للقلق صباح يوم الأربعاء في عزبة "باسيلويذر" موطن أجداد دوقات "بسيل ويذر"، بالقُرب من بلدة "بلفدير" المزدهرة لاحظ واحد من البُستانيين أنَّ أحد الأبواب لغرفة البلياردو قد اقتُحم ليُنبِّه عاملي المنزل في الحال ويكتشفوا

أنَّ قفل الباب الداخلى للغرفة قد كُسرَ، وقد ظهرت على الخشب آثار سكين، قلقين من كونها سرقة؛ فقد تفحص الخدم مخزن الفضيَّات ليجدوا أنَّ كل شىء فى مكانه، وحتى الأطباق والشمعدانات فى غرفة الطعام لم يمَسَّهما أحد، حتى المحتويات القيمه جدًّا فى غرفة الرسم أو المعرض أو المكتبة أو أى مكان آخر فى العزبة الواسعة لم يُسرَق أى شىء منهم، ولم يكن هناك أى آثار لأبواب مقتحمة. لم يكن حتى ذهبت خادمات الدور العلوى حاملات أباريق المياه الساخنة، لغرف عائلة الدوق، أن وجدوا باب غرفة «فيسكونت تويكسبيرى» مركيز بسيل ويذر مفتوحًا على مصراعيه، والأثاث المتبعثر فى الغرفة يحمل شهادة صامتة على صراعٍ يائس، ولم يكن هناك أثر لشخصه النبيل.

الفيسكونت وريث لورد باسيلويذر وابنه الوحيد والبالغ اثنى عشر عامًا فقط.

- اثني عشر عامًا؟!

قلتها بصوتٍ عالٍ متعجبة. جاء صوت المُضيفة من خلفي: ماذا هناك يا سيدتي؟

في سرعة خفضتُ الصحيفة من يدي وقلت: آه.. لا شيء.

وضعت الصحيفة على الطاولة، وأنزلت الغطاء على وجهي.

«اعتقدتُ أنه أصغر. أصغر بكثير. بتلك الخصلات المُلتوية، وبذلته المختارة من كتاب حكاياتٍ ظننتُه أصغر بكثير. اثنا عشر عامًا! يجب أن يرتدي هذا الصبي سترةً صوفية، وربطة عنق وقصة شعر لائقة رجولية.

انقطعت أفكاري فجأةً وقد استوعبتُ أن تلك الأفكار كانت مشابهة تمامًا لأفكار أخي «شيرلوك هولمز» حين قابلني.

- آه تقصدين اللورد تويكسبيري المسكين.

نعم، لقد أبقتْه والدته كطفل. يقال إنها تموت حزنًا. يا له من أمر حزين.

دفعتُ كرسي للخلف، وتركت نصف بينس على الطاولة، وخرجت من المقهى، وبعد أن تركت حقيبة السفر في أمانات المحطة، مشيت ناحية متنزَّة «باسيلويذر».

سيكون ذلك أفضل بكثيرٍ من البحث عن الحصى اللامع وأعشاش الطيور. شيء ذو قيمة حقيقية كان يجب العثور عليه، وأنا أردتُ أن أعثر

عليه، وآمنتُ ربما أنه يمكنني فعل ذلك.

عرفت أين يمكن أن يكون اللودر تويكسبيري موجودًا، فقط عرفت... برغم أنني لم أملك أيَّ طريقة لإثبات ذلك، ولكن طوال طريقي على طول خط الأشجار كنت في نوعٍ من الغيبوبة، في خيالي المكان الذي لا بدَّ وأنه ذهب إليه.

كانت البوابات الأمامية مفتوحة، ولكن عند البوابة الثانية أوقفني حارس المنزل. فقد كان واجبه أن يُبقي الفضوليِّين، ومُراسلي الصحف بعيدًا، وأشباههم.

سألني: ما اسمك يا سيدتي؟

قلت دون تفكير: إينولا هولمز.

على الفور شعرت بغبائي الشديد، أردتُ أن أموت في التوِّ واللحظة. حين هربتُ كنت قد اخترت لنفسي اسمًا جديدًا «إيفي ميشيل»، إيفي يعني بالإنجليزية «لبلاب» الذي كان يُمثل لأمي الإخلاص، و«ميشيل» كان شفرة اخترعتها حيث لو أخذت كلمة هولمز باللغة الإنجليزية وقسَّمتُها إلى جزأين «هول» و«ميس»، ثم عكستهما؛ «ميس هول»، ثم نطقتهما نفس النطق الإنجليزي إذا كانا

في مكانهما الصحيح؛ فتحصل على «ميشيل».

كان سيكون شخصًا نادرًا جدًّا من يتمكن من ربطي بأي شخصٍ آخر في إنجلترا.

«هل أنتِ قريبة عائلة «ميشيلز» القاطنين بـ«توترينج هيلز؟».

كان من المفترض أن يتساءل الجميع هذا، كان اختياري لـ«إيفي ميشيل» بارعًا جدًّا، ولكنني كالحمقاء أخبرتُ حارس المنزل «إينولا هولمز».

من تعبيرات وجهه الخالية تمامًا؛ فإنَّ الاسم لم يَعنِ أيَّ شيء بالنسبة له، ولكن إذا جاء أي مُتقفي أثر، وبدأ في توجيه الأسئلة: وما عملك هنا يا سيدة هولمز؟

سألني الرجل.

حيث إنني كنت حمقاء، فقد قررتُ أن أستغلَّ ما يمكن استغلاله، فقلت:

- حيث إن السيد شيرلوك هولمز لم يستطع أن يأتي بنفسه، فقد طلب منِّي أن آتي لألُقي نظرة.

انعقد حاجبا الحارس وهو يسأل: هل تقربين للمُحقق يا سيدتي؟

- بالتأكيد.

أجبتُ بلهجة نهائية، وتحركت متقدِّمة إلى داخل متنزَّه «بسيل ويذر» كانت العزبة ماثلة أمامي، في صينية في نهاية الطريق، كانت المساحة كافية لتحوي عشرة منازل مثل منزلنا في «فرنديل»، ولكنني لم أقترب من السلالم الرخامية، ولا العمدان ولا الأبواب. لم يكن اهتمامي مُنصبًّا على المنزل ولا الحدائق الرسمية حوله، المليئة بالزهور المُنمَّقة.

أحيد عن الطريق الخاص، مشيتُ عبر ساحة من العشب باتجاه متنزَّه «باسيلويذر»، والغابات المُحيطة بالمباني. لم تكن غاباتٍ بالضبط بل أقرب إلى حدائق واسعة. أخطو تحت أشجار مُتوقِّعة أن أجد بعض الأجمة أو بقاعًا من الطحالب وشجيرات عشبية، ولكني وجدتُ عوضًا عن ذلك عشبًا ناعمًا مُهذبًا بما يكفي حتى أنه يمكنك أن تلعب عليه الكروكيت.

مشيت على طول الطريق مُكتشفة عدم وجود أي كهوف صغيرة أو تجاويف، لقد كانت عزبة «بسيل ويذر» وأراضيها مسطحة تمامًا دون أي تضاريس مميزة.

فكرتُ وأنا أمرُّ بين العشب مرة أخرى أن ذلك مُحبِط.

قد يكون الاحتمال الوحيد...

- سيدة هولمز!

جاء صوت صراخ عال، التفتُّ لأجد الأمَّ المضطربة. هُرعت الدوقة ناحيتي وقد تعرفتُ عليها من فستانها الباهظ الذي يحتوي على تضفيراتٍ ثقيلة على ردائها الفضي وتنُّورتها المصنوعة من الستان الرمادي الوردي. ولكن لم يكن هناك أي آثار على ثرائها يظهر في عيونها الدامعة ووجهها المشدوه. لم تكن هناك أي آثار على أرستقراطيتها وهي تركض بين الأشجار كبجعةٍ جريحة وخصلات شعرها البيضاء تنسدِل من تحت القبعة لتتطاير على كتفَيها.

من خلفها كان هناك زوج من الخادمات يبدو عليهما الخوف ترتدِيان المآزر وقُبعات الدانتيل البيضاء. ولا بدَّ أنهما خرجتا مباشرة من المنزل خلفها. كانتا تصيحان خلفها: يا سُمُوَّك.. يا سموَّك نرجوكِ، عودي للداخل، دَعينا نُعِدُّ لك كوبًا من الشاي، نرجوك، إنها ستُمطر.

ولكن الدوقة لم يبدُ عليها أنها سمعتهما.

- سيدة هولمز!

شعرتُ بيديها المرتعِشتَين وهي تُمسك بي: أنت امرأة ولديك قلب امرأة، أخبريني مَن باستطاعته أن يفعل شيئًا شريرًا كهذا؟ أين يمكن أن يكون تويكي؟ ما الذي يجب عليَّ فعله؟

مُمسكة بكلتا يديها المُرتعشتَين. كنت شاكرةً لأن غطاء وجهي الثقيل قد أخفى وجهي المفزوع، وشاكرةً أن القفازَين قد فصلا بين جسدي الدافئ وجسدها البارد.

خرجت منِّي الكلمات غير مُرتبة: فلتتحلَّي بالشجاعة، إمممم يا سُموَّك، واا إمممم فلتتمسَّكي بالأمل.

ثم تمكنتُ من كلماتي لأسأل: دعيني أسألك هل كان هناك أي مكان (بالطريقة التي كانت تتعامل معه بها فربما كانت تتجسَّس عليه، أو لدَيها حدْس بشأنه) مكان في الأراضي من حولنا حيث كان يذهب ابنك ليكون وحيدًا؟

- ليكون وحيدًا؟!

رفَّت بجفونها المُنتفخة دون أن تستوعِب ثم سألتْ مرة أخرى: ما الذي تعنينه بذلك؟

- هُراء محض.

أعلن صوت غليظ أتى من خلفي:

- تلـك الأرملـة لا تعـرِف أيَّ شيء، سـوف أجـد ولـدَك، طفلـك المفقـود يـا سـموَّ الدوقـة.

التفتُّ لأجـد أكـثر امـرأة اسـتثنائية رأيتهـا في حيـاتي، كانـت أطـول مـنِّي، وأكـثر ضخامـة، وصُدمـت أن وجدتُها دون قبعـة. كان شـعرها المجعَّـد يلتـفُّ حـول رأسـها مـن الكتـف للكتـف كانـت تبـدو كمصبـاحٍ أبيـض وشـعرها غطـاء مصبـاح الأحمـر، لـم يكـن كسـتنائيًّا أو بُنيًّـا بـل كان أحمـر حقيقيًّـا، يـكاد يكـون قرمزيًّـا لـون شـقائق النعمـان. بينمـا عيناهـا كانتـا تتوهَّجـان مـن بـين وجههـا المُغطَّـى بالمسـاحيق كقلـب الزهـرة الأسـود.

كان شـعرها ووجههـا يجذبـان الاهتمـام كثـيرًا حـتى أني لـم ألاحـظ ملابسـها.

كان لـديَّ فقـط انطبـاع أنهـا ترتـدي شـيئًا قطنيًّـا، ربمـا مـن مِـصر أو مـن الهنـد، مرسـومًا عليـه أنمـاط بربريـة قرمزيـة تلتـفُّ حـول جسـدها الضخـم.

شـهقتِ الدوقـة قائلـة: مـدام ليليـا، لقـد أتيـت، لقـد توسَّـلتُ إليـك وأتيـتِ يـا مـدام ليليـا.

مـدام مـاذا؟ يبـدو أنهـا وسـيطة روحانيـة،

استنتجتُ ذلك.

كان ذلك دورًا يحظى بتفوُّقٍ نادر للجنس النسائي عن الجنس الرجالي بكثير.

وتحظى النساء فيه باحترامٍ أكثر. ولكنَّ شخصياتٍ كهؤلاء الدجَّالين (كما كانت أمي تُطلق عليهم) كانوا يستحضِرون أرواح الموتى، ومن المؤكد أنَّ الدوقة لم تكن لتتمنَّى أن يكون ولدُها قد مات. فما الذي تفعله تلك السيدة الضخمة؟

- مدام «ليليا سيبيل دي بابافر» خبيرة إسقاط نجمي «بريدتوريان» في خدمتك.

ادَّعت المرأة وأكملت: أيًّا كان الضائع فبالتأكيد يُمكنني أن أجده، فإنَّ الأرواح تذهب في كل مكان، وتعرِف كلَّ شيء وترى كل شيء، وهم أصدقائي.

كانت الدوقة الآن تُمسك بيدَي المرأة التي ترتدي فيهما قفازَين أصفرَين بينما أنا كنتُ أقف فاغرة الفم مِثلي مثل تلكما الخادمتَين المسكينتين المصدومتين، ولكن في حالتي لم أكن مصدومةً من مظهر المرأة الغريب، ولا حديثها عن الأرواح، بينما أردتُ أن أومن أنَّ بعد زوال جسدي المادي سيبقى وعيي بشكلٍ ما، ولكن سيكون لوعيي (روحي) أشياء

أهـمُّ تفعلهـا عـلى أن أحـرك الأثـاث أو أدقَّ عـلى جـرسٍ مـا، أو أهـزَّ الموائـد.

ولـم تكـن كلمـات مثـل الإسـقاط النجمـي تُبهـرني، ولكـن مـن كل مـا قالتـه مـدام «ليليـا سـيبيل دي بابافـر» كلمـة واحـدة ثبَّتتْـني في مـكاني غـير قـادرة عـلى النطـق، تلـك الكلمـة كانـت «بريدتوريـان». كانـت تـأتي مـن اللاتينيـة «بيردتـوس» بمعـنى «ضائـع». فـ«بريدتوريـان» تعـني الشـخص الـذي يتنبَّـأ بمـكان الضائعـين. ولكـن كيـف تجـرؤ، بـكل تزَّهاتهـا عـن الأرواح، كيـف يمكنهـا أن تُلقـب نفسـها بهـذا اللقـب النبيـل؟ العارفـة بمـكان المفقوديـن، حكيمـة الضائعـين، واجـدة الضائعـين. لقـد كان ذلـك قـدَري ودعـوتي، أنـا الـ«بريدتوريـان»، أو سـأكون، ليـس بالإسـقاط النجمـي، بـل سـأكون باحثـةً محترفـة عـن الضائعـين. أول محترفـة تسـتخدِم المنطـق والبحـث العلمـي لإيجـاد الضائعـين في العالَـم، كل ذلـك جـاءني كإلهـامٍ في نبضـة قلـب. عرفـت ذلـك كحقيقـةٍ واقعـة تمامًـا كمـا أعـرف أن اسـمي هـو «هولمـز».

بالـكاد لاحظـتُ كيـف أنَّ الخادمـات قـد اصطحـبن مـدام «ليليـا» والدوقـة إلى البيـت. ربمـا مـن أجـل شُرب الشـاي، وربمـا مـن أجـل جلسـة تحضـير. لـم

أهتـم، اتجَّهـت مـرة أخـرى للغابـات الـتي طوَّقـتُ مُتـنزَّه «بسـيل ويـذر»، مشـيت بـدون هـدف، غافلـة عـن الـرذاذ الـذي بـدأ في التسـاقط.

كانـت أفـكاري الحماسـية تتسـارع في ذهـني، وأبـني عـلى مُخططـي الأصـلي في العثـور عـلى أمـي.

كانـت خُطـتي بسـيطة، مـا إن أصِـل إلى لنـدن سـأقوم بطلـب سـيارة أجـرة وأطلـب مـن السـائق أن يأخـذني إلى فنـدقٍ محـترم لأتنـاول العشـاء وأحظـى بليلـةٍ مـن النـوم الجيـد.

كنـتُ سـأبقى في الفنـدق حـتى أجـد مسـكنًا مناسـبًا، وكنـت سـأفتح حسـابًا بنكيًّـا، لا، في البـدء كنـتُ سـأذهب لشـارع «فليـت» لأضـع إعلانًـا مُشـفَّرًا في المطبوعـات الـتي أعـرف أنَّ أمـي تقرؤهـا. في أي مـكانٍ كانـت بالتأكيـد سـتتابع قراءتهـا لجرائدهـا المفضلـة.

وسأنتظر حتى يأتي ردُّ أمي، فقط سأنتظر.

سـيفي ذلـك بالغـرَض إذ كنـت أحتـاج دائمًـا أن أطمـئِنَ نفسي أن أمـي مـا تـزال حيـة وبخـير. عـلى أي حـال، الانتظـار هـو كل مـا أسـتطيع فعلـه. أو هـذا مـا اعتقدتـه، ولكـن الآن.. الآن وجـدت دعـوتي في الحيـاة، أسـتطيع أن أفعـل أكـثر مـن ذلـك بكثـير، دعْ أخـي

شيرلوك ليكون المُحقِّق الخاص الوحيد في العالم كما يُحب، سأكون أنا واجدة الضائعين الخاصة الوحيدة في العالم، وبذلك يُمكنني أن أقترن بالنساء المُحترفات اللاتي يلتقين في غرف الشاي الخاصة بهن في أرجاء لندن (نساء قد يكنَّ يعرفنَ أمي)، وبمُحقِّقي سكوتلاند يارد (حيث قدَّم شيرلوك بلاغًا بالفعل بخصوص أمي)، وبأشخاصٍ آخرين ذوي مقام رفيع، وربما أيضًا أشخاص آخرين سيئي السمعة.

أشخاص يملكون المعلومات، وربما يبيعونها أيضًا. آه الاحتمالات، لقد وُلدتُ لأكون واجدةً للضائعين. باحثة عن المفقودين والأحباء، و...

ويجِب عليَّ أن أتوقف عن الغرق في خيالاتي، وأن أبدأ في العمل.

الآن الاحتمال الوحيد كما كنتُ أفكر من قبلِ أن تتمَّ مقاطعتي أنه يمكن أن يكون شجرة.

أسترجع خطواتي خلال الأراضي المُملَّة، وفي غابات متنزه «باسيلويذر» أركز الآن على البحث عن شجرة بذاتها. سوف تقع بعيدًا عن منزل «بسيل ويذر» وحديقته المُنمَّقة بقليل، ولن تكون قريبةً جدًّا من حدود المتنزَّه، ولكن في منتصف الغابة؛

حيث لا يمكن لأعين البالغين أن تتجسَّس، ومثل ملاذي تحت الصفصافة المعلَّقة في «فرنديل» ولا بدَّ أن يكون ذلك المَخبأ مُميزًا بشكلٍ ما حتى يصير جديرًا بأن يكون مخبًا.

كانت الأمطار الخفيفة قد توقَّفت، والشمس قد بزغت، كنت قد اقتربتُ من أن أدور دائرةً كاملة في أنحاء العزبة قبل أن أجد المكان المنشود. لم تكن شجرةً واحدة في الحقيقة، ولكن أربعًا نمتْ من جذرٍ واحد، أربع شتلات من القيقب زُرِعْن في المكان نفسه. وكل ما تبقَّى كان أربعَة جذوع قائمة بزوايا حادة صانعةً مربَّعًا مثاليًّا فيما بينها.

واضعة قدَمًا واحدة على غُصنٍ متدلٍّ دفعتُ بنفسي متأرجحة لأعلى ربما لثلاثة أقدام فوق الأرض، وبداخل الرقم ٧ الذي صنعتْهُ الجذوع كان هناك في المنتصف محور مِثالي بين أوراق الشجر، والأكثر جمالًا أنَّ أحدهم، على الأغلب اللورد الصغير «تويكسبيري»، كان هنا.

كان قد دقَّ مسمارًا ضخمًا، في الواقع كان واحدًا من مسامير السكك الحديدية الضخمة في جذع واحدةٍ من الأشجار بالداخل.

لم يكن لأحدٍ مارٍّ بجوار تلك الأشجار أن

يلاحظ، ولكن كان هناك بروز قوي لتعليق شيء ما ربما!

لا، فمسمار أصغر بكثيرٍ كان يمكن أن يُستخدَم لغرض التعليق، عرفت أنَّ ذلك المسمار الضخم لا بدَّ أنه لصناعة موضع قدَم للتسلُّق، يا له من يومٍ مجيد، أخيرًا فرصة لتسلُّق الأشجار مرةً أخرى بعد عدة أسابيع من التصرُّف كسيدة أرستقراطية.

ولكن يا للتقيُّد، ماذا لو رآني أحدُهم. أرملة محترمة تتسلَّق الشجر؟

نظرتُ من حولي ولم أر أحدًا. فقرَّرتُ أن أخاطر مُغتنمة الفرصة.

تخلَّصتُ من قبعتي، وغطاء الوجه، وأخفيتُهما تحت بعض أوراق الشجر، ورفعت تنورتي فوق رُكبتي مؤمِّنة إيَّاها ببعض الدبابيس التي أخذتها من القبعة، ثم وضعت قدمي على المسمار الضخم المُعلق، وصعدت. كانت الأغصان تخترق شعري مُتقصِّفة بداخله ولكني لم أهتم. باستثناء الوخزات المُعتادة لوجهي، لقد كان الأمر سهلًا كصعود سُلَّم. كان هذا شيئًا جيدًا حيث إنَّ كل أطرافي كانت مُلتهبة وتُعلن اعتراضها مع كل حركة.

ولكـن لـورد «تويكسـبيري» لحُسـن الحـظ كان قـد غـرَس مسـمارًا مـن مسـامير السـكك الحديديـة في كل مـكانٍ لـم يكـن فيـه غُصـن يصلُـح كموطـئٍ لقـدَم.

ذلـك الفيسـكونت الصغـير كان فـتًى ذكيًّـا. لا شـكَّ في أنـه قـد حصـل عـلى تلـك المسـامير مـن قضبـان السـكك الحديديـة الـتي تمـرُّ بجـوار عزبـة أبيـه. أرجـو ألا يكـون هنـاك حـوادث قـد حدثـت للقطارات بسـبب فعلتِـه تلـك.

بعـد أن تسـلَّقتُ عشريـن قدمًـا أو أكـثر توقَّفـت لأرى إلى أيـن أذهـب، رفعـتُ رأسي لأنظُـر لأعـلى، ويـا إلـه السـماوات. لقـد بـنى منصَّـةً داخـل الشـجرة. هيـكلًا غـير مَـرئي مـن الأرض.

مـن موقعـي هـذا كان يُمكنـني تقديـر المجهـود الـذي بذلَـه فيهـا. إطـار مُربَّـع مصنـوع مـن قصاصـات الخشـب غـير المُعالـج يقـع بـين شـجيرات القيقـب الأربـع، وأعمـدة تدعمهـا مـا بـين الجـذوع مُثبَّتـة في مكانهـا عـلى أطـراف الشـجرة، أو أُمِّنـت بسـلك مربـوط حـول الزوايـا. وُضِعـت الألـواح فـوق العـوارض، لتشـكل أرضيـة مـن نـوعٍ مـا. تخيلتُـه وهـو يجمـع كل ذلـك مـن الإسـطبلات، أو مـن المخـازن، أو يعلـم الله مـن أيـن أيضًـا، ثـم يجرُّهـا جـرًّا إلى هنـا، ربمـا اضطـرَّ

لفعل ذلك في ظلام الليل، وبعدَها يرفعها على الأشجار بحبالٍ حتى يضعها في مكانها.

وطوال ذلك الوقت أمُّه تضع مشابك الشعر في شعره، وتُلبسه الستان والمخمل والدانتيل. فلترحَمْنا السماء.

في ركنٍ من بيت الشجر ذلك كان قد ترك فتحةً يمكنه الدخول منها، ما إن أدخلت رأسي لبيت الشجرة الخاص به حتى ازداد احترامي للورد الصغير، كان قد علَّق مُربعًا من القماش، ربما يكون غطاء عربة مُستخدمًا إيَّاه كسقفٍ لبيته.

وفي الأركان كان قد وضع أغطية سروج خيل في الأغلب قد «استعارها» من الإسطبل، كان قد طواها لتُستخدَم كوسائد للجلوس.

في الجذوع الأربعة للأشجار كان قد غرس مسامير علَّق منها حلقات حبالٍ معقودة وصورَ قوارب وصافرة معدنية، وأشياء أخرى مثيرة للاهتمام.

زحفتُ أقرَبَ لأُلقي نظرة، ولكن على الفور جذب انتباهي منظر صادم في منتصف الأرضية.

شظايا وقصاصات ممزَّقة احتجتُ للحظة كي أتعرَّف على ماهيتها.

مخمل أسود، شريطة بيضاء، ستان أزرق فاتح، بقايا ما يبدو أنها كانت ملابس. وفوق تلك الأشياء كان هناك شعر طويل ملفوف ذهبي.

لا بدَّ أنه قد جزَّ شعره حتى الجذور بعد أن مزَّق ثيابه الغالية. فيسكونت تويكسبيري قد دخل هنا بمحض إرادته، لم يكن هناك خاطف، فلا خاطف يستطيع أن يحمِله حتى هنا أو يعرِف هذا المكان، ومن مرأى الأشياء فإنَّ فيسكونت تويكسبيري قد ترك مَخبأه كما جاء بإرادته الحُرة، ولكنه حين خرج لم يكن «فيسكونت تويكسبيري» مركيز «باسيلويذر».

الفصل العاشر

عـلى الأرض مـرة أخـرى وقـد أسـدلتُ تنُّـورتي للأسـفل حيـث تنتمـي، وأعـدت قبعـتي السـوداء لتغطـي عـلى شـعري غـير المهـذَّب، وغطـاء الوجـه أنزلتـه لإخفـاء وجهـي. مشـيتُ كالعميـاء لا أعـرف مـا الـذي سـأفعله.

حـول واحـدٍ مـن أصابعـي المُغطـاة بالقفـازات عقـدت خصلـة مـن الشـعر الأصفـر المموَّج الطويـل، تركـتُ البـاقي حيـث وجدتـه، مُتخيلـة أنَّ الطيـور البريـة سـوف تأخُـذ منـه لتصنـع بـه أعشاشـها.

فكـرتُ في الرسـالة الغاضبـة الصامتـة الـتي تركهـا الفـتى الهـارب، في مـلاذه الـسري. فكـرتُ في الدمـوع الـتي رأيتُهـا في عيـون أمِّـه، يـا للسـيدة المسـكينة! ولكـن في نفـس الوقـت يـا للفـتى المسـكين! أُجـبر عـلى ارتـداء المخمـل والدانتيـل، كان ذلـك بنفـس سـوء ارتـداء المشـدِّ الحديـدي، لـم تكـن مُصادفـة أني فكـرتُ في نفـسي.. أنـا إينـولا الهاربـة مثـل لـورد تويكسـبيري الصغـير باسـتثناء أنـه في الأغلـب كان لديـه

رجاحة العقل ليُغير اسمه، وليس مِثلي الحمقاء التي أتت هنا وعرَّفت نفسها باسم «إينولا هولمز» واضعةً نفسي في خطر.

أحتاج لمهرَب. ولكن بالرغم من ذلك أحتاج لأطمئِنَ الدوقة التعيسة. لا لا، يجِب أن أترك متنزَّه بسيل ويذر في أسرع وقتٍ ممكن قبل أن...

- سيدة هولمز؟

تجمَّدْت.. وجدتُ نفسي على طريق العربات المقابل لمنزل «باسيلويذر» تمامًا، غير واثقة إن وجَب عليَّ أن أتقدَّم أو أتقهقر حين جاء صوت يُنادني من أعلى:

- سيدة هولمز!

مُخفيةً خصلة الشعر في راحة يدي استدرتُ لأرى رجلًا يرتدي عباءة سفرٍ يُسرع الخطوات على السلالم الرخامية باتجاهي.

كان واحدًا من المُحقِّقين القادمين من لندن.

- أستميحك عذرًا، آاااا.. آاااا لافتراضي من أنتِ.

قالها وهو يقِف أمامي ويُكمِل: ولكن الحارس أبلغني أنك هنا، وكنتُ أتساءل...

كان صغيرًا يُشبه ابن عِرس، لم يكن من النوع ذي العضلات المفتولة الذي تتوقَّع رؤيته مع العامِلين في الشرطة، ولكنه يثير الخوف بالطريقة التي كانت عينُه التي تُشبه حبَّات الخرَز تتفحَّصني، كخنفسة سوداء لامعة تحاول أن تزحف لتخترق حجاب وجهي.

بصوتٍ عالي النبرة أكمل: أنا أحد معارف السيد شيرلوك هولمز، اسمي هو «ليستراد».

لم أعرِض يدي للمصافحة وأنا أقول: كيف حالك؟

- بخير حال شكرًا لك. عليَّ قول إنَّ لقاءك لهوَ مفاجأة سارَّة.

كانت نبرتُه نبرة من يحاول أن يستشفَّ معلومات. كان يعرِف أن اسمي هو «إينولا هولمز»، يمكنه أن يرى أنني أرملة، ولذلك فقط ناداني بلقب سيدة، ولكنه لا بدَّ أنه يتساءل إذا كنتُ قريبةً لعائلة «هولمز» بالزَّواج فقط؛ لماذا يُرسلني شيرلوك بدلًا عنه.

- أ.. عليَّ أن أقول إنَّ هولمز لم يذكُرْك أبدًا.

- بالطبع.

قلتُها وأنا أهزُّ رأسي بتهذيبٍ وأُكْمِلُ: وهل سبق لك التحدُّث بخصوص عائلتك مع هولمز؟

- لا!. آاا... أعني لم تكن هناك فرصة.

مُحتفظة بنبرتي التي تمنَّيتُ أن تكون لا تُعبر عن أي مشاعر: بالتأكيد لا.

ولكن أفكاري كانت تُزقزِق مثل العصافير. ذلك الفضولي سوف يُخبر «شيرلوك» أنَّنا قد التقَينا، وفي أي ظروفٍ في أول فرصة. لا، الأسوأ من ذلك بما أنه مُحقِّق في «سكوتلاند يارد» ففي أي دقيقةٍ قد يتلقَّى برقيةً بشأني. يجِب عليَّ الهروب قبل أن يحدُث ذلك. فهو يملك شكوكًا نحوي بالفعل، عليَّ أن أشتِّتَ المفتش «ليستراد» حتى يتوقَّف عن التدقيق بي.

أبسُط يدي لأظهر خصلة الشعر لأُريه إيَّاها.

وأقول في لهجةٍ قيادية تُحاكي لهجة أخي الشهيرة: بخصوص لورد «تويكسبيري»، لم يُخطف.

أشَحْتُ بيدي لأوقف محاولة المُفتِّش على الاعتراض، وأكملت: لقد تولَّى الأمر بنفسه، وهرَب. كنتَ ستفعل المِثل لو ألبسوك مثل دُمية صغيرة في بدلة مخملية. لقد أراد الذهاب للبحر في قارب،

سـفينة أعـني.

في مخبـأ الفيسـكونت الصغـير كنـتُ قـد رأيـتُ صـورًا لسُـفن بخاريـة، ومقصوصـات عـن سـفن، وأشـياء أخـرى لهـا علاقـة بالسـفن البحريـة.

- بالتحديـد كان يُحـب تلـك السـفينة الضخمـة الـتي تُشـبه وحشًـا؛ وكأنهـا قطيـع مـن الماشـية بأشرِعـة، وهنـاك عجـلات ومِجـداف عـلى الجانبَـين.. مـا كان اسـمُها؟ تلـك الـتي أرسَـتِ الكابـل عـبر الأطلـسي.

ولكـنَّ عيـني المفتـش «ليسـتراد» لـم تتحـرَّك مـن فـوق خصلـة الشـعر في يـدي.

تكلَّـم كالمعتـوه: مـاذا...؟ أيـن...؟ كيـف ا سـتنتجْتِ . . . ؟

- الشرق الأعظم.

مُتذكرة أخيرًا اسم أكبر سفينة في العالم.

- سـوف تجـد لـورد «تويكسـبيري» في المرفـأ عـلى أرصفـة لنـدن البحريـة في أغلـب الظـنِّ يُحـاول أن يلتحِـق كعامـلٍ بحـري أو صـبي كابينـة؛ فقـد كان يتـدرَّب عـلى ربـط عُقَـد البحـارة، وتخلَّـص مـن شـعره تمامًـا، ولا بـدَّ أنـه قـد حصـل عـلى بعـض ملابـس العامـة بطريقـةٍ مـا. ربمـا مـن واحـدٍ مـن فتيـان

الإسطبل. ربما ترغب في التحقيق معه. بعد تحوُّلٍ كذلك، أتخيَّل ألَّا أحد في المحطة سيتعرَّف عليه لو قرَّر أن يستخدِم القطار.

- ولكن الباب المكسور؟ والقفل المحطم؟

- لقد فعل ذلك حتى تبحثوا عن خاطفٍ بدلًا من البحث عن هارب، ليُقلِق أمَّه.

كانت تلك الفكرة ما جعلتني لا أشعُر بالسوء وأنا أُخبره ما أعرِف.

أُعطِيه خصلة الشعر وأنا أقول: ربما يجِب عليك أن تُعطِ سموَّها هذه. إلَّا أنني لا أعرف حقًّا إذا كان سيُساعدها ذلك، أم سيجعلها تشعُر بسوءٍ أكثر.

مُحدقًا إليَّ كان المفتش ليسترد يبدو وكأنه بالكاد يعرِف ما الذي يفعله ويدُه اليمنى ترتفع ليأخذ منِّي الخصلة.

- ولكن أين وجدتِ تلك؟

كانت يده الأخرى ترتفع وكأنه يُحاول أن يجذِبَني من كوعي إلى منزل «باسيلويذر».

أخذتُ خطوة للخلف بعيدًا عن يده لأدرك وجود طرفٍ ثالث في مُحادثتنا، على قمَّة السلالم

الرخامية وسط الدرابزينات والأعمدة اليونانية؛ كانت مدام «ليليا» تشاهد وتسمع.

خفضتُ صوتي لأُجيب المفتش ليستراد: في أول دورٍ من شجرة القيقب ذات الأربعة جذور.

وأشرتُ للاتجاه، وبينما هو يستدير لينظُر، تحركتُ بعيدًا بسرعةٍ أكبر من السرعة المناسبة التي يجِب على سيدة أرستقراطية أن تتحرَّك بها مُتجهة ناحية البوابة.

- سيدة هولمز؟

صاح من خلفي دون أن أعدِّل من سرعة مشيتي، أو حتى ألتفِتَ لأنظر للخلف، رفعتُ يدًا واحدة بتلويحةٍ مهذَّبة تُماثل تلك التلويحة التي قد لوَّح بها أخي بعصاه ناحيتي من قبل محاولةً ألا أنطلق راكضة، وأكملتُ مَشيي.

حين عبرتُ البوابات أطلقتُ زفرة حبيسة.

لم أكن قد ركبت قطارًا من قبل، واستغربتُ حين وجدت أن الدرجة الثانية كانت مقسَّمة حيث يجلس أربعة أشخاص في مواجهة بعضهم بعضا على كراسي جلدية، وكما في عربة الخيل.

كنت أتخيَّل شيئًا مفتوحًا أكثر، كالحافلة

العموميـة، ولـم تكـن كذلـك.

اقتـادني الكمـسري في المَمـشى الضيـق، فتـح لي بابًـا، وفجـأة وجـدت نفـسي جالسـة مـع ثلاثـة غربـاء وقـد كان كرسـي يواجِـهُ مؤخِّـرة القطـار.

وبعـد لحظـاتٍ شـعرتُ بنفـسي أُحمَـل ببـطء في البدايـة، ولكـن بتسـارُع مُسـتمر للخلـف باتجـاه لنـدن.

كانـت تلـك الوضعيـة مُلائمـة جـدًّا حيـث إن وجـود المفتـش ليسـتراد جعلـني غـير قـادرة عـلى رؤيـة القـادم؛ حيـث إنـه تحـدَّث مـع أرملـةٍ مغفلـة اسـمها «إينـولا هولمـز»، وسـوف يُخبـر أخـي شـيرلوك؛ أحتـاج لأن أتخـلى عـن تنكُّـري الممتـاز.

بالتأكيـد احتجـتُ لأن أُعيـد النظـر في وضعـي بالكامـل.

مُتنهِّـدة وأنـا أجلـس عـلى حافـة مقعـدي بسـبب حشـو الأرداف الـذي أرتديـه، هيـأتُ نفـسي لتقدُّمـي للـوراء، كان القطـار يتأرجـح ويتمايـل بينمـا يسـير بسرعـةٍ أسرع مرَّتَـين عـلى الأقـل مـن سرعـة درَّاجـتي وهـي تـنزل مـن فـوق تـل.

كانـت الأشـجار والمبـاني تجـري سريعًـا بجـوار النافـذة حـتى أني اضطـررتُ إلى تجنُّـب النظـر.

شعرت بالغثيان قليلًا لأكثر من سبب؛ فقد كانت خُطَّتي أن آخُذ سيارة أجرة وأذهب لفندق، وأبحث عن مكان للإيجار، وأنتظر في هدوءٍ قد لا يمكن تنفيذها الآن. فقد تمَّ التعرُّف عليّ، وتمَّت رؤيتي، فأي من المُحقِّق ليستراد أو أخي شيرلوك سيتعقَّب أرملة شابة عبر «بلفدير» وسيعرفون أني أخذت قطار المساء السريع إلى المدينة.

وداعًا لتشتيت أخويّ بفكرة أني في «ويلز»، ولكن ربما هما لا يعرفان أنَّ حالتي المادية جيدة، ولكن سيعرفلن على أي حالٍ أنني ذهبتُ إلى لندن، ولا يوجَد شيء يُمكنني فعله بخصوص ذلك. إلَّا أنه ربما أرحل من لندن بمجرد وصولي. آخُذ القطار التالي لأي مكان.

ولكن بالتأكيد فإنَّ أخي سيُحقق مع بائعي التذاكر، والآن. فإنَّ ثوبي الأسود يُميزني، فلو عرف شيرلوك هولمز أنَّ أرملة قد صعدت على قطار إلى «هاوند ستون» ربما، أو «روكينجهام» أو «بودينجورث» فسوف يُحقق، وبالتأكيد سيكون من الأسهل أن يجِدَني في «هاوند ستون» أو «روكينج هام» أو «بودينج ورث» أو أي مكانٍ آخَر غير «لندن».

والأكثر من ذلك أردت أن أذهب إلى «لندن»، ليس وكأني أعتقِد أن أُمي هناك، بالعكس، ولكن سأتمكن أن أجِدها بشكلٍ أفضل من هناك.

وقد حلمتُ دائمًا بلندن؛ القصور، النافورات، الكاتدرائيات، المسارح، الأوبرا، الرجال في البدل الرسمية، والنساء مُزيَّنات بالماس.

وأيضًا وأنا أهتزُّ متجهةً بظهري للمدينة العظيمة أجد ابتسامةً ترتسم على وجهي من تحت حجابي من فكرة أني أختبئ من أخويّ وأنا تحت أنفهم. سأُغير رأيهما بخصوص قُدرة الجمجمة الصغيرة لأختهما الصغيرة. حسنًا إذن.. إلى لندن.

ولكن الظروف تغيَّرت؛ حيث إني لا أستطيع حين أصل إلى المدينة أن آخُذ سيارة أجرة. شيرلوك هولمز سوف يُحقق مع سائقي الأجرة، ولذا سيجِب عليَّ أن أمشي، والليل كان قادمًا، ولكن لا يمكن أن أسمح لنفسي الآن بغرفةٍ في فندق، بالتأكيد سيُحقق أخي في كل الفنادق، سأحتاج إلى أن أمشي مسافةً كبيرة لأبتعِد عن محطة القطار، ولكن لأين أذهب؟

لو دخلتُ شارعًا خاطئًا ربما أجد نفسي في صحبة نوعيةٍ غير لطيفة من الناس.

ربما أواجه نشَّالًا أو... أو... أو ربما قاطع رقاب. يا لها من فكرةٍ غير سارة.

وبينما أفكر في تلك الفكرة أحاول أن أُبعد عيني من المنظر الذي يُصيبني بالدوار خارج النافذة.

اختلستُ نظرة للباب الزجاجي في نهاية المَمر، وكدتُ أصرخ. هناك، ومثل قمر مُكتمل كان هناك وجهٌ كبير يتفحَّص المقصورات، أنفُه يلتصِق بالواجهات الزجاجية، كان الرجل يتفحَّص كلَّ المسافرين، دون أن يتغيَّر التعبير الجامد على وجهه.

ثبَّت نظرته الغامضة عليَّ ثُم تحرك مُكملًا طريقه، ابتلعتُ ريقي، ونظرتُ حولي للركَّاب بجواري لأرى إن كانوا قد أصيبوا بالخوف أيضًا.

يبدو أنهم لم يفعلوا.

في المقعد المجاور لي عامل يرتدي قبعة كان يغطس في مقعده ويتعالى شخيره.

كان حذاؤه الخشِن ذو المقدمة المربعة في منتصف الأرضية. أمامه كان هناك شخص يرتدي بنطالًا منقوشًا وقبعة شِبه رسمية يقرأ الصحيفة باهتمام.

ويبدو من الصفحة التي امتلأت برسومات الفرسان والخيول أنه كان يهتمُّ بحلبة السباق، وبجواره -أمامي مباشرة- جلسَتِ امرأة كبيرة في السن، وكانت تُحدِّق بي بنظرةٍ مبتهجة.

- هل هناك شيء يا بطتي؟

بطتي؟ كانت طريقة مُحادثة غريبة، ولكني لم أُعلق عليها لأسأل: من كان ذلك الرجل؟

- أي رجل يا بطة؟

إما أنها لم ترَه على الإطلاق أو أنه من الطبيعي أنَّ رجلًا ضخمًا أصلع يرتدي قبعة قماشية أن يحدِّق إلى راكبي القطارات وأنا أبدو كحمقاء.

أهزُّ رأسي تاركة الأمر وأنا أتمتم: لا ضرَر إذن. إلا أن قلبي كان يُعلن أني كاذبة.

- تبدين شاحبةً تحت كل ذلك السواد.

أعلنت صديقتي الجديدة. كانت من العامة، وبلا أسنان، وبدلًا من قبعة مناسبة، كانت ترتدي قلنسوة قديمة تُشبه قطعة فِطر كبيرة، وقد ربطتْها بشريطٍ برتقالي تحت ذقنها الخشِن، بدلًا من الفستان كانت ترتدي رداءً من الفرو قد اصلعَّ أكثر من نصفه، وبلوزة كانت أقل من الأبيض،

وتثُّـورة أرجوانيـة قديمـة قـد جُدلـت حافتهـا الباهتـة.

حدَّقـت إليَّ وكأنهـا طائـر صغـير يبحـث عـن فتـات خُـبز.

- الفقيد رحل مؤخَّرًا يا بطتي؟

آه.. أرادت أن تعرِف عن زوجي الراحل.

هززتُ رأسي.

- والآن أنتِ ذاهبة إلى لندن؟

هززتُ رأسي.

- إنهـا نفـس القصـة القديمـة دائمًـا. أليـس كذلـك يـا بطـة؟

اقتربـتْ مـني السـيدة السـوقية العجـوز وقالـت بأكبر قـدرٍ مـن الشـفقة: وجـدتِ لنفسـك زوجًـا وتركك ومـات دون أن يـترُكَ لـك وسـيلةً لإطعـام ذاتـك، والآن تبديـن مريضـة، ربمـا هنـاك طفـل في أحشـائك؟

يا لها من كلماتٍ قاسية التي استخدمَتْها!

في البدايـة واجهـتُ صعوبـة في الفهـم فأنـا لعمـري لـم أسـمع مثـل ذلـك الـكلام غـير المُستسـاغ يُقـال بصـوتٍ عـالٍ أبـدًا، وفي مـكانٍ عـام، وفي وجـود رجـال (بالرغـم مـن أنـه يبـدو أنَّ كليهمـا لـم يلاحـظ) وجـدت نفـسي مصدومـةً وغـير قـادرة عـلى النطـق، واحمـرارٌ

نـارِيٌّ يُغطـي وجهـي.

كانـت مُعذبـتي الـودودة قـد اعتـبرت أنَّ احمـرار وجهـي تأكيـد؛ فهـزَّت رأسـها واقتربـت أكـثر: والآن تُفكريـن أنـه يمكنـك أن تجـدي عملًا في المدينـة. هـل ذهبـتِ إلى لنـدن مـن قبـل يـا عزيـزتي؟

تمكنتُ من هزِّ رأسي أن «لا».

- حسـنًا، لا تُعيـدي الأخطـاء القديمـة يـا بطـتي، مهمـا وعـدك الرجـال.

اقتربـتْ أكـثر وكأنهـا سـتُخبرني بِسرٍّ عظيـم، ولكنهـا لـم تخفـض صوتهـا حـتى: لـو أردت الحصـول عـلى بعـض البنسـات انزعـي ثوبًـا داخليًّـا أو اثنـين مـن تحـت فسـتانك.

شعرتُ أنَّني سأفقد الوعي.

لحُسـن الحـظ أن العامـل قـد عـلا شـخيرُه في تلـك اللحظـة، والرجـل الآخـر رفـع الجريـدة ليُغطـي وجهـه لتُكمِـل الشـمطاء: لـن تفتقديهـا، العديـد مـن النسـاء في لنـدن لا يملكـن ملابـس داخليـة.

أردتُ بشـدَّة أن تنتهـيَ وأن ينتهـي ذلـك الموقـف، حـتى أني خاطـرتُ بالنظـر مـن النافـذة. مـنزل بعـد مـنزل مـرَّ بجـوار الزجـاج الآن، ومبـانٍ طويلـة مُلتصقـة وتحـوَّل الطـوب إلى أحجـار.

- خُـذي تلـك الملابـس لملابـس «كلاهـان» المُسـتعملة في طريـق «سـينت توكيـنز»، قبالـة شـارع «كيبـل».

تُكمـل الشـمطاء بـلا هـوادة وقـد كانـت تجلـس القرفصـاء مُذكِّـرة إيَّـاي الآن بضفـدع أكـثر منهـا بطائـرٍ صغـير.

- في الجـزء الـشرقي كمـا تعلمـين، تسـتطيعين أن تَشـقِّي طريقـك هنـاك بجـوار المرفـأ. وانتبهـي، بمجـرَّد أن تجـدي طريـق «سـاينت توكيـنز» لا تذهـبي إلى أحـد التجـار الآخريـن، اذهـبي مبـاشرة إلى «كلاهـان» سيُعطيك سـعرًا عـادلًا مقابـل تلـك الملابـس؛ خاصـة لـو كانـت مصنوعـة مـن الحريـر الطبيعـي.

الرجـل الـذي يقـرأ الجريـدة حرَّكهـا بصـوتٍ عـالٍ، وتنحنـح بينمـا أنـا أغـرس يـديَّ في حافـة مقعـدي.

ابتعـدتُ بجسـدي عـن الشـمطاء العجـوز للخلـف

بقـدْر اسـتطاعتي بوجـود حشـو الأرداف الـذي أرتديـه.

غمغمت: شكرًا.

لـم تكـن لـدي نيـة لأن أبيـع ملابـسي الداخليـة، ولكـن بالرغـم مـن ذلـك فـإنَّ تلـك العجـوز الشـنيعة قـد سـاعدتني.

فقـد كنـتُ أتسـاءل أيـن يُمكنـني أن أتخلَّـص مـن ملابـس الأرملـة، أن أحصـل عـلى شيءٍ جديـد. بالتأكيد كان لـديَّ الكثـير مـن الأمـوال، لأبتـاع أيَّ شيء أحتاجه، لتفصيـل أي شيءٍ أحتاجـه، ولكـن صناعـة الملابـس تحتـاج لوقـت، وبالتأكيـد فـإن أخـي سـوف يُحقِّـق مـع محـلات الخياطـة، وبالتأكيـد سـوف يتذكرونـني لـو جاءتهـم أرملـة ترتـدي السـواد وطلبـت أيَّ شيءٍ آخـر غـير ملابـس سـوداء أو رماديـة أو بيضـاء بلمسـةٍ مـن الخـزام.

فبعـد السـنة الأولى مـن الحـداد؛ كان ذلـك الـذي يجِـب عـلى أيِّ أرملـة.

ولكـن وبالنظـر إلى ذكاء أخـي؛ أيٌّ مـن ذلـك لـن يصنـع فارقًـا، لا يمكنـني أن أُعـدِّل مـن مظهـري فقـط، يجِـب عـليَّ أن أتحـوَّل بالكامـل. ولكـن كيـف؟

أسرِق بعض الملابس من على حبال الغسيل؟

الآن عرفتُ كيف.

محـلَّات الملابـس المُسـتعملة طريـق «سـاينت توكيـنز» مقابـل شـارع «كيبـل» في الجانـب الـشرقي.

لا أعتقـد أن أخـي سيسـأل هنـاك. ولا أعتقـد أني كنـتُ سـأخاطر بحيـاتي بالذهـاب إلى هنـاك.

الفصل الحادي عشر

مـن مقعـدي في القطـار حصلـتُ عـلى لمحـاتٍ عابـرة مـن لنـدن، ولكـن حـين خرجـتُ مـن محطـة «ألدرجيتـس»، ناويـة أن تكـون خطـواتي سريعـة؛ وجـدتُ نفـسي بـدلًا مـن ذلـك ثابتـة أتأمَّـل تلـك المدينـة الكبـيرة الواسـعة المُمتلئـة.

في كل مـكانٍ مـن حـولي أطلَّـت عـليَّ البريـة الـتي صنعهـا الإنسـان بنفسـه، مبـانٍ أكـثر طـولًا مـن أطـول شـجرة.

أخواي يعيشان هنا؟

في تلـك المُحـاكاة الأسـمنتية السـاخرة لأي عالـمٍ قـد عرفتُـه مـن قبـل. الكثـير مـن المداخـن الـتي تندفَّـق مـن الأسـطح تلـوح في الأفـق مقابـل السـماء البرتقاليـة المُبهـرة والسـحابات الرصاصيـة كانـت منخفضـة، والشـمس الـتي تغـرُب تتـسرَّب أشـعتها مـن بـين تلـك الغيـوم.

كانـت أبـراج المدينـة القوطيـة منتصبـةً تعكـسُ السـماء المضيئـة كشـموع في كعكـة عيـد ميـلاد

الشـيطان.

بقيـتُ أحـدق حـتى بـدأت ألاحـظ ضِيـق جحافـل المـارة مـن سـكان المدينـة الذيـن يحاولـون أن يتخطَّـوني ذاهبـين إلى أعمالهـم.

أخـذت نفسًـا عميقًـا، أغلقـت فمي، ابتلعـت ريقي ثـم أعطيـت ظهـري لذلـك الغـروب المشـئوم.

هنـا في لنـدن مثـل أي مـكانٍ آخـر، أخـبرتُ ذاتي أن الشـمس تغيـب في الغـرب، لـذا أجـبرت أطـرافي المنهكـة عـلى الحركـة.

مشـيتُ في طريـق واسـع يقـود إلى الـشرق بمـا أنِّي قـد أعطيـت ظهـري للشـمس باتجـاه محـل الملابـس المسـتعملة.

المرفأ، الشوارع الفقيرة، الطرف الشرقي.

بعـد بضـع بناياتٍ دخلـت إلى شـوارع ضيقـة ألقـتِ المبـاني المزدحمـة بظلالهـا عليهـا. ومـن خلفـي غاصـت الشـمس في الأفـق، في ظـلام المدينـة لا نجـوم ولا قمـر قـد ظهـر، ولكـن أضـواء صفـراء قادمـة مـن واجهـات المحـلَّات قـد افترشـت الأرصفـة وبـدت كأنهـا تُقاطـع الظـلام.

كان المـارة يظهـرون وكأنهـم رؤًى قادمـين مـن

الظَّلام، ليظهروا لعدة خطوات بفعل إضاءة الواجهات، ومصابيح الشوارع ثم يبتلِعُهم الظلام في الزوايا، أو يشبهون الخيالات القادمة من الكوابيس.

تندفع الفئرانُ من الظلال وإلى الظلال، فئران المدينة الشجعان الذين لم يهربوا حين مررتُ بجوارهم.

حاولتُ ألَّا أنظر إليهم، وحاولت التظاهر بأنهم غير موجودين. وحاولت ألا أحدِّق في الرجل غير الحليق الذي يرتدي ربطة العنق القرمزية، ولا في الفتى الذي يتضوَّر جوعًا مُرتديًا ملابس بالية، ولا الرجل القوي الذي كان يرتدي مَريلة مُغطاة بالدماء، ولا المرأة الغجرية الحافية الواقفة في ركن.

إذن فهناك غجَر في لندن أيضًا، ولكن ليس هناك غجَر في الأرياف المُتباهية.

كان هذا شحَّاذًا قذِرًا، كئيبًا مثل مدخنة.

تلك كانت لندن؟

أين المسارح وعربات الخيل الغالية والسيدات المُتزيِّنات بالجواهر والمُتلفِّحات بالفراء مُرتديات فساتين السهرة؟ أين السادة ذوو الحمَّالات الذهبية

ورابطات العنق البيضاء، وذيول البذلات الطويلة؟

عوضًا عن ذلك كان الأمر وكأني أتمشَّى في بيت كلب.

جاء رجل شاحِب يرتدي لوحة إعلانات أمامه وعلى ظهره، كان مكتوبًا فوقها :

«للمعانٍ لا مثيل له للشعر

استخدموا

«فان كمت»،

زيت ماكاسار.»

التفَّ حوله مجموعة من الأطفال المُتَّسخين، ساخِرين منه، وقارِعين قُبعته من فوق رأسه وهم يرقصون.

فتاة راقصة منهم سألته: أين تحتفظ بالخردل؟

ويبدو أنها نكتة رائعة لأنَّ أقرانها انطلقوا في الضحك مثل الضِّباع.

امتلأت الشوارع المُظلمة بضجيج مُشابه. أصحاب المحلات يصرخون في أطفال الشوارع

«ابتعدوا عن هنا»، بينما العربات تنطلق من أمام تجار السمك الذين يصرخون «سمك الحادوق الطازج للعشاء»، والبحَّارة يُلقون التحية على بعضهم بعضا، ومن أمام باب بيتٍ فقير صرخت امرأة «سارة.. ويلي..».

تساءلت أنه ربما كان ابناها اللذان تُنادي عليهما مع بقية الأطفال يُعذِّبون الرجل الذي يحمِل اللافتة.

في تلك الأثناء كان المارة يمرُّون بجواري، يتحدثون بأصوات عالية، وبِلُغةٍ بذيئة، مشيتُ أسرع وكأنه يمكنني أن أهرب. يا لها من مشاهد عجيبة، والكثير من الغوغاء.

لا عجَب أنَّني لم أسمع الخطوات التي تبِعتْني، لم ألاحظ حتى.

ازداد الظلام ودخلنا أكثر في الليل، أو هكذا بدا لي الأمر في البداية، ولكنني استوعبتُ أن الشوارع نفسها هي التي صارت أكثر قتامة؛ فلم يعُد هناك محلات ذات واجهات مُضيئة، فقط الحانات في الزوايا، وأصوات السكارى تنساب من داخلها للظلام.

رأيتُ امرأة واقفة على باب حانة منهم، وجهها مُزيَّن، شفتان حمراوان، وبشرة بيضاء، وحاجبان سوداوان، وخمَّنتُ أنَّني أرى فتاة ليلٍ مرتديةً ملابسها القصيرة الرخيصة كان يفوح منها رائحة الجبن بشكلٍ سيئ، كان يمكنني أن أشمَّه حتى من بين الروائح السيئة الأخرى التي جاءت من جسدها الذي قلَّما غسلته.

ولكن لم تكن هي مصدر الرائحة السيئة الوحيدة؛ فالطرف الغربي من لندن كان له رائحة الملفوف المسلوق، مخلوطًا بدخان الفحم مع رائحة السمك الميِّت ورائحة الصرف الصحي القادمة من المزاريب، وبالطبع رائحة الناس في تلك المزاريب.

رأيتُ رجلًا راكضًا سكران أو مريضًا، رأيتُ أطفالًا مُجتمعين مثل الجِراء للنوم واستوعبتُ أنهم لا يملكون منازل. تألَّم قلبي.. أردتُ أن أُنقذ أولئك الأطفال، وأُعطيهم بعض الأموال ليشتروا الخبز، وفطيرة لحم، ولكنِّي أجبرتُ نفسي على الاستمرار في المشي مُطوِّلة حجمَ خطوتي، شاعرة بالخطر.

ظِلٌّ مُظلم زحف على الرصيف أمامي. زاحفةً على يديها وركبتيها، تسحب قدميها الحافيتَين

توقفت فجأةً محدقة شاعرة بالصدمة من منظر العجوز التي أصبحت في مثل هذا البؤس، لا يُغطيها سوى ثوبٍ بالكاد يسترها لا يوجَد تحته شيء ولا شيء على رأسها أيضًا، ولم يكن هناك حتى على رأسها شعر. فقط مجموعة من التقرُّحات غطَّت جمجمتها.

منعتُ صرخة كادت تصدُر مني من المنظر، وهي تحبو في سرعة الحلزون على ركبتيها.

رفعت رأسها بضع بوصاتٍ لتُلقي نظرة عليَّ، كانت عيناها شاحبتَين كالعنب، ولكني كنت وقفت لحظة أطول من اللازم. خطوات ثقيلة جاءت من ورائي، قفزتُ للأمام ناوية الفرار ولكني كنت متأخِّرة.

الخطوات جاءت في أثري وقبضة حديدية أمسكت بذراعي. بدأت في الصراخ ولكن كفًّا فولاذيَّة وُضعتْ على فمي، وبالقُرب من أذني صوت عميق قال بغضب: لو تحرَّكتِ أو صرختِ سأقتلك.

تجمَّدتُ من الهلع.

بعينين متسعتين حدقتُ إلى الظلام ولم أستطع الحركة، بالكاد استطعت التنفُّس وأنا واقفة ألهث.

تركتْ قبضتُه يُسراي، وتسلَّلتْ حَولي لتُمسك بكلتا ذراعي بقوة لتضعهما على جانبيَّ، دافعًا ظهري ليضغط على ما كنتُ سأظنُّ أنه حائط حجري لو لم أعرف أنه صدره.

رفع يدَه من على فمي ولكن في لحظة قبل أن تستطيع شفتاي المُرتعشتان أن تكوِّنا صوتًا، وفي الضوء الضعيف للشارع رأيتُ لمعة الحديد.

نصل طويل وأملس كقطعة ثلج.. نصل سكين. بصعوبة أيضًا رأيتُ اليد التي تحمل السكين، يدٌ كبيرة في قفاز باهت الألوان.

- أين هو؟

قالها الرجل بلهجةٍ مُرعبة.

- ماذا؟

أين من؟

لم أستطع أن أتكلم.

- أين لورد تويكسبيري؟

لم يكن لذلك معنى، لِماذا يكون رجلٌ في لندن يسألني أنا عن النبيل الهارب؟

من الذي يعرِف أنَّني كنتُ في بلفدير؟

ثم تذكرتُ الوجه الذي رأيتُه في كابينة القطار ملتصقًا خلف الزجاج.

قال بصوتٍ أشبَهَ بالهسيس: سأسألك مرةً أخرى.. سأسألك مرة واحدة فقط: أين فيسكونت بيري مركيز باسيلويذر؟

ولا بدَّ أن الوقت قد كان بعد منتصف الليل الآن، كانت أصوات صراخ غير واضحة تأتي من بعيدٍ من الحانات وبعض أصوات الغناء السيئ، ولكن كانت الأرصفة خالية تمامًا، أو ما كنت أراه من الأرصفة على أي حال. فأي شيءٍ من الممكن أن يكون في ثنايا تلك الظلال. ولم يكن هذا النوع من الأماكن التي يأمُل المرء أن يجد مساعدة فيها.

- أنا.. آاااا..

تمكنتُ من أن أقول متلجلجة: لا أملك أدنى فكرة.

لمع نصْل السكين تحت ذقني، حيث شعرتُ فوق ياقتي بضغط النصل على عُنقي.

ابتلعتُ ريقي، وأغمضت عيني، بينما حذَّرني خاطفي:

- لا تتلاعَبي معي الآن. أنتِ في طريقك إليه. أين

هو ؟

حاولت أن أتكلَّم بهدوء: أنت مُخطئ.

ولكن صوتي جاء مرتعشًا.

- أنت تعمل تحت وهمٍ سخيف. أنا لا أعرف...

- كاذبة.

شعرتُ بِنيَّته في القتل تتزايد في عضلات كتفِه.

قفزت السكين، لتهتزَّ في يده، قاطعةً لرقبتي، لتجد بدلًا من رقبتي؛ بلين ياقة القميص وبما ظننتُه آخر أنفاسي صرختُ وأنا ألتوي متملِّصة من قبضة القاتل.

انطلقتُ للأمام ثم للخلف. لوَّحتُ بحقيبة السفر خاصتي يمينًا ويسارًا؛ شاعرة أنها التطمت بوجهه قبل أن تطير من يدي.

أطلق سبَّةً عالية، وتراخت قبضته قليلًا، ولكنه لم يترُكني.

صارخًا شعرت بنصله الطويل يطعنني في جانبي، ضربتُه اصطدمتْ بالمشدِّ الذي أرتديه ليطعَنَني مرةً أخرى محاولًا أن يصِل إلى لحمي.

ولكن عوضًا عن ذلك فقد شقَّ ثوبي شقًّا طويلًا، تمزَّق في يده وأنا أركض صارخةً «ساعدوني..

سـاعدوني.. فليُسـاعدني أحدُهـم...».

وأنـا أتخبَّـط في الظـلام، أركـض وأركـض وأنـا لا أعـرف إلى أيـن.

- هنا يا سيدتي.

جاء صوت رجل عالٍ، وحادٍّ قادمًا من الظلام.

أحدهـم سـمِع صرخـاتي، برغـم كل شيء. كـدتُ أن أبـكي فرحًـا. التفـتُّ ناحيـة الصـوت مُلقيـة بنفـسي في زقـاقٍ ضيـق وحـادٍّ بـين المبـاني، وكانـت تفـوح منـه رائحـة القطـران.

شعرتُ بيده النحيلة تأخذني من كوعي.

- من هنا.

موجهـة إيَّـاي نحـو شيءٍ يلمـع في ظـلام الليـل.. النهـر.

جذبـني مُرشـدي ناحيـة مَمـرٍّ خشـبي ضيـق، لـم يكـن ثابتًـا تمامًـا تحـت أقدامـي.

غريزيًّـا شـعرتُ بالريبـة، وتوقفـت وقلـبي يـدقُّ بسرعـةٍ لـم أعرفهـا مـن قبـل لأهمـس سـائلة: إلى أيـن نذهـب؟

وفي أقـل ممـا احتاجـه ليقـول لي: افعـلي مـا أقولـه لـك.

كان قد لوى ذراعي خلف ظهري، ودفع بي للأمام ناحية المجهول.

- توقَّف.

غرستُ كعب حذائي في الألواح الخشبية تحت قدمي، شاعرةً بالحنق أكثر مني خائفة.

لقد كنتُ فقدتُ حقيبة السفر خاصتي، وهُدِّدتُ بسكين، وتقطَّعت ملابسي.

كانت خطتي قد دُمِّرت تمامًا، والآن شخص قد ظننتُه منقذي يتحوَّل لعدوٍ جديد.

لقد نلتُ كفايتي.

صرختُ بأعلى صوتي: توقَّف يا حقير.

لاويًا ذراعي بقوةٍ أكثر: أمسكي لسانك.

ثم دفعني دفعةً قوية. لم أستطع سوى أن أتعثَّر للأمام، ولكني واصلت: اللعنة.. اتركني.

شيء ما ثقيل ارتطم بأذني اليُمنى، سقطتُ على جانبي في الظلام.

ليس من العدل أنَّني فقدتُ الوعي، أنا لم أفقد الوعي أبدًا، وأتمنَّى ألَّا يحدُث ذلك، ولكن ما حدث أنني فقدتُ التحكم بأغلب حواسِّي، عندما فتحتُ عيني وجدت أنني نصف جالسة ونصف

نائمة على أرضيةٍ خشبية مُلتوية، كانت يداي مربوطتين خلف ظهري، وكعباي مربوطين مثلهما بحبلٍ من القنب.

معلقًا من سقف خشبي حقير كان هناك مصباح زيتٍ باعثًا بحرارة ورائحة خانقة، وضوء شاحب. رأيتُ أحجارًا كبيرة حول ماءٍ بلون التربنتين بالقُرب من قدمي.

الأرضية بدت وكأنها تتحرك من تحتي، وشعرت بدوار خفيف وخفة في رأسي، مغلقة عينيَّ انتظرتُ أن يمرَّ ذلك الإحساس، ولكنه لم يمر، واستوعبتُ ساعتها أن شعوري بخفة الرأس لم يكن بسبب الخبطة التي تلقَّيتُها من خاطفي على رأسي، ولكن الشعور بالخفة جاء من كونه نزَع القبعة من على رأسي، ربما خوفًا من البنس التي من المُمكن أن أستخدمها، شعرتُ أن رأسي عارٍ، وأنني مكشوفة، وأن عالمي يرتجُّ ويهتز، ولكنني لم أكن مريضة.

كنتُ مستلقية في قبو قارب. في بدن القارب إن أردنا الدقة. أتذكَّر أن ذلك ما كانوا يدعونه، بينما لم تكن لديَّ أي خبرة في السفن، أو البوارج. كنت قد ركبتُ زورق تجديف مرة أو مرَّتَين، وأستطيع أن أتعرَّف شعور الطفو، وحركة القوارب في المياه

وهـي واقفـة نوعًـا مـا.

إذن فأنـا في المـاء ولكـن القـارب مربـوط لا يتحـرك والسـقف حيـث كان المصبـاح يتأرجـح كان هـو الجانب السُّـفلي مـن سـطح السـفينة، وتلـك البركـة العفِنـة تحـت أقدامـي يُطلَـق عليهـا مـاء جـوف المركـب، وتلـك الأحجـار بجوارهـا فهـي صابـورة ثقـل الموازنـة.

افتـح عينـيَّ ناظـرةً للظـلام. مسـحتُ بعينـيَّ سِـجني المظلـم، لأسـتوعب أنـني لسـت وحـدي.

ففـي مواجهـتي في الجانـب الآخـر في بـدن السـفينة ويـداه خلـف ظهـره وكعبـاه مربوطـين صـبيٌّ يدرُسـني بعينَيـه.

عـين غامقـة غاضبـة، فـكٌّ قـاسٍ، ملابـس رخيصـة، قدمَـان حافيتـان ناعمتَـان مُتقرِّحتَـان شـاحبتَان، شـعر فاتـح غـير متسـاوٍ، ووجـه رأيتُـه مـن قبـل، رأيتـه فقـط عـلى صفحـات الجرائـد ولكنـني تعرَّفتـه.

«فيسكونت تويكسبيري» مركيز باسيلويذر.

الفصل الثاني عشر

ولكن.. ولكن ذلك غريب ومُستحيل.

كان من المفترَض أن يكون هاربًا للبحر.

دون أي مُقدمات أو تعاريف تساءلت: بحق السماء ما الذي تفعله هنا؟

عقد حاجبَيه الذهبيَّين: أأنتِ تفترِضين معرفةً سابقة يا آنسة؟

- بحقِّ السماء أنا لا أفترض أيَّ شيء.

وقد كانت مُفاجأتي واستيائي يُجبراني على أن أفرد ظهري بصعوبة، وأُكمل بغضب: أنا أعرف من أنت يا تويكي.

- لا تَدْعيني بذلك.

- حسنًا لورد تويكسبر.. تويكسبري البحري. ما الذي تفعله هنا حافيَ القدمَين على هذا القارب؟

- المرء يُمكنه أن يسأل ذات الشيء عن فتاةٍ مُتنكرة كأرملة.

كانت لهجتُه الحادة تُشابه أكثر فأكثر الطريقة

الأرستقراطية في الحديث.

رددتُ في سرعة: آه.. وأنت مجرَّد صبيٍّ يعمل بالبحر، ويتحدَّث بلكنة أرستقراطية.

- آه وأنتِ أرملة بدون خاتم زواج.

لم أكن أستطيع أن أرى يديَّ وهما معقودتان خلف ظهري، لذا لم أكن أعرِف، ولكني استوعبتُ الآن أنهم نزعوا قفَّازاتي.

تساءلت: لماذا نزع قفَّازي عنِّي؟

قال اللورد مُصحِّحًا: نزعا.. جمع.. هناك اثنان منهم، أرادا سرقة خاتمك لكنهما لم يجداه.

بالرغم من لهجته المُتعالية وكأنه يُحاضر الهواء، كان يُمكنني تمييز أنَّ وجهه شاحب، ورؤية شفتَيه المُرتعشتَين وهو يتحدَّث.

- لقد فتَّشوا جيوبك أيضًا ووجدوا بعض الشلنات ودبابيس الشعر وثلاثة أعواد عرقسوس ومنديل قذِر...

- بالتأكيد.

حاولت أن أُخرِس سرده حيث إن فكرة أنه أثناء غيابي عن الوعي؛ رجال غرباء وضعوا أيديَهم في جيوبي... الفكرة ذاتها جعلتْني أرتجِف. لحُسن

الحظ لم يلمس أحدهم جسدي حيث كانت كل أغراضي مُخبَّأة حوله. ما أزال أستطيع الشعور بحشو الأرداف والمشد، ومُحسِّن الملابس موضوعةً في أماكنها كما كانت.

- مشط، فُرشاة، كُتيب صغير مُنمَّق يوجَد عليه زهور.

شعرتُ بقلبي في حلقي، ونظرتُ إليه وكأنه قد قتل أمي. كانت عيناي مُشتعِلتَين، ولكني عضضتُ على شفتيَّ حيث لم يكن ذلك الوقت المناسب ولا المكان المناسب للحزن على ما خسرته.

- وبما أنَّ أحد جوانب فستانك كان مقطوعًا ظهر جزء من المشد الوردي الفاضح الذي ترتدينه.

قلتُ بغضبٍ شديد قد غذَّاه بؤسي: يا لك من ولدٍ بذيء.

كان جسدي يرتجِف من الخجَل والغضب معًا.

انفجرتُ فيه قائلة: أنت تستحقُّ ما أنت فيه الآن، مربوط اليدين والقدمَين...

- وماذا عنكِ؟ أنت لا تَبدين أكبر منِّي حتى، هل تستحقِّين نفس الشيء؟

- أنا أكبر منك.

- أكبر منِّي بكم؟

كـدتُ أن أُخـبره، لكـني تذكـرتُ أنـه لا يجِـب عـليَّ أن أكشـف عن عمـري لأي شـخص.

لقـد كان ذكيًّـا، وبالرغـم مـن محاولتـه لأن يظهـر دون ذلـك فقـد كان خائفًـا.. خائفًـا مثـلي تمامًـا.

بعـد أن أخـذتُ نفسًـا عميقًـا سـألته بهـدوء: كـم مـرَّ عليـك وأنـت مسـجون هنـا؟

- حـوالي سـاعة، بينمـا كان أصغرهـم يختطفـني بـدا وكأنَّ الكبـير يتبعُـك لسـببٍ مـا. أنـا...

قطـع حديثَـه وقـد جـاء صـوت خطـوات ثقيلـة مـن فوقنـا، توقَّفـتِ الخطـوات وجـاء ضـوء مصبـاح مـن فتحـةٍ في نهايـة سـجننا، ووجـدتُ نفسـي أشـاهد رجـلًا يـنزل السـلالم.

رأيـتُ حـذاء٥ المطَّاطـي أولًا، كان يقـول لأحدهـم وهـو يـنزل: مـن حـوالي سـاعة.

تعرَّفـت عـلى صوتـه الحـاد، كان رفيعًـا، واهيًـا، مُحنيًـا. كان هـذا الرجـل مُنكمشًـا مثـل كلـب شـوارع مُصـاب بسـوء تغذيـة.

- وجدتُـه حيـث أخبرتمـوني في برقيَّتِكـم. يتجـوَّل عـلى أرصفـة الميناء، بالقُـرب مـن نقطـة تحميـل

(الشرق العظيم)، نحن نعرف عملنا جيدًا، ولكن ماذا عن الفتاة؟

جاء صوتٌ عميقٌ لرجلٍ آخر وهو يهبط بدوره: نفس الشيء.

كنت أعرف ذلك الصوت أيضًا، وراقبتُه في هدوء وحذاؤه الأسود ينزل على السلم، يتبعه أطرافه الضخمة المكسوَّة بالملابس الداكنة، ملابس لا بدَّ أنها كانت في يومٍ ما ملكًا لرجلٍ أرستقراطي، إلا أنها الآن تدهورت كثيرًا. كان يُمكنني أن أرى في ضوء المصباح الذي يحمله قفَّازه الباهت. كان مُصفرًّا.

كان الكثير من الطبقات العُليا يرتدون مثل هذا القفاز، رجال وسيدات، وكان في الأغلب أصفر اللون، كانوا يرتدونه ليُظهروا أنهم من طبقةٍ اجتماعية عالية.

حين اكتمل نزول الرجل، وظهر ظهرُه الضخم بالكامل لاحظتُ أنه بالرغم من ذلك لا يرتدي قبعةً أرستقراطية، ولكن قبعته قماشية من قبعات العمال.

كنتُ مستعدَّةً وقتها حين استدار ورأيتُ وجهه، لقد كان هو بالفعل، الوجه البارد الأبيض الذي

كان يُحملق من خلف الزجاج في كابينة القطار.

كان وجهه يُشبه قمرًا مؤذيًا، وحين نزع قُبعته بدا وكأنه جمجمة مؤذية، فقد كان أصلع تمامًا، أصلع مثل يَرقَة، لم يكن هناك أيُّ شعر في رأسه باستثناء خطٍّ أحمر بارز من أذنيه.

- اعتقدت أنك تلاحقها فقط في حالة أني لم أستطع أن أُمسك به.

قال الآخر.

- نعم، كان ذلك للتأكيد.

ردَّ الأصلع الضخم.

- ولكن أيضًا لأنها قالت إن اسمها «هولمز».

أثناء حديثه مع شريكه كان يتأمَّلني باستمتاع خبيث، على وجهه ابتسامة بشعة، وقد اتسعت عيناي، وفغرتُ فاهي، لم أستطع إخفاء صدمتي، كيف عرف من أنا؟ كيف تمكن من معرفة ذلك؟

مُستمتعًا بردة فعلي أعطى ظهره لرفيقه: تقول إنها قريبة «شيرلوك هولمز»، لو كان ذلك صحيحًا فهناك غنيمة يُمكننا الحصول عليها.

- لماذا حاولت قتلها إذن؟

إذن فذلك الرجل الضخم ذو شعر الأذن الكثيف

كما ظننتُ هو القاتل الذي كان يُمسك بي.

هزَّ كتفَيه وقال: لقد أزعجتني.

قالها بلهجةٍ لا مُبالية، استطعتُ إغلاق فكي، وقد بدأتْ الأشياء تبدو منطقية.

لقد كان يبحث عني على القطار، وتبِعَني من المحطة، ومع ذلك لا شيء منطقي. لماذا كان يُحقق معي؟ ولماذا كان يظنُّ أنني أعرف مكان لورد تويكسبيري؟

نظر القاتل في عينيَّ مباشرة بعينَين مثل الثلج الأسود.

- اللعنة.

كنت أشعر أن هناك شيئًا مألوفًا في نظرته إليَّ، لا يمكنني إنكار كم أرعبَتْني حتى أنني كنت أرتعش وهو يقول: الفتيات هنا لا يملكن الشلنات الكافية لابتياع المشدَّات، لقد شققتُ بطونًا كثيرة في أيامي، لا تحاولي أن تتحدِّيني مرة أخرى.

جلستُ صامتة لا أستطيع أن أفكر في ردٍّ مناسب. الحقيقة أني كنتُ خائفة بشدَّة، ولكن ساعتها الرجل الآخر الضعيف أفسد كل ذلك بقوله: حسنًا، من الأفضل أن تحترس من أن تجعل «شيرلوك هولمز»

غاضبًا. ممَّا أسمعه فسيكون من الحمق العبث مع ذلك الرجل.

التفتَ إليه الضخم: أنا أعبث مع من أشاء.

كانت نبرتُه حادة وشريرة كنصل سكين.

- أنا ذاهب للنوم، فلتحرُس هذَين الاثنين.

تمتم الآخر: كان ذلك ما سأفعله على أيِّ حال.

لكنه لم يقُلها إلا عندما تأكد أن الوحش الضخم قد اختفى صاعدًا على سطح المركب.

النحيل الأشبَه بالكلب الأجرب جلس مُعطيًا ظهره للسلم، وحدق بنا بعينَيه الصغيرتَين الشريرتين.

قلتُ بلهجةٍ مطالبة: من أنت؟

حتى في إضاءة المصباح الزيتي الخافتة تمكَّنتُ من أن أرى في ابتسامته الصفراء أنه يفتقد لعدة أسنان.

- الأمير الساحر في خدمتك.

كانت كذبةً واضحة، اكفهرَّ وجهي.

جاء صوت لورد تويكسبيري مُحدثًا إيَّاي: بما أننا نقوم بالتعارف، ما اسمك؟

هـزتُ رأسي في رفـضٍ بينمـا جـاء الصـوت الحـاد قائـلًا: امنعـا الـكلام.

سـألتُ في بـرود: مـا الـذي تنـوي أنـت وصديقـك فعلـه بنـا؟

- سـنأخذكما للرقـص يـا عزيـزاي. قلـتُ لكمـا ألَّا تتكلَّمـا.

كنـت غـير مسـتعدة لتسـلية ذلـك الشـخص البغيـض، اسـتلقيتُ عـلى جانـبي، عـلى الأرضيـة الخشـبية، جاعلـةً الناحيـة المقطوعـة مـن فسـتاني تحـتي، وأغلقـتُ عيـني.

كان مـن الصعـب النـوم، أو حـتى التظاهـر بالنـوم ويـداي مربوطتـان خلـف ظهـري، ولـيزدَدِ الأمـر سـوءًا فـإن المشـدَّ الحديـدي كان يؤلمـني تحـت ذراعـي.

كلٌّ مـن أفـكاري وجسـدي كانـا أبعـدَ مـا يكونـان عـن الراحة.

كان ذكـر «الغنيمـة» يُشـير إلى المـال، ممـا يقـودني لاسـتنتاج أنـني محتجـزة للحصـول عـلى فديـة، لـم أسـتطع أن أتخيَّـل طريقـةً أكـثر إهانـةً أعـود بهـا لأخـويَّ، اللذيـن بـلا شـكٍّ سيُرسـلانني إلى مدرسـةٍ داخليـة بعدمـا يَصفعانـني فـوق مُؤخِّـرتي.

تساءلت إذا كانا سيأخذان أموالي، وتساءلت كيف.. كيف.. كيف ذلك الأحمق الضخم عرف مَن أنا ليتبعني، والأكثر ترويعًا كيف عرف عن «فيسكونت تويكسبيري» وبعث ببرقية لمساعده الأجرب عنه.

وتساءلتُ ما الذي كان يقصده بـ (نفس الشيء).

ارتجفتُ من الرعب، وأجبرت ذاتي على أن أبقى مُتأهبة لأي فرصةٍ للهروب.

وفي نفس الوقت كنتُ أعرف أنَّ من الحكمة أن أتنفَّس بهدوء أكبر، وأن أتوقف عن الارتعاش، وأن أحتفظ بِطاقتي وأحاول النوم.

بسبب شكل هيكل السفينة كنتُ مُستلقية على منحدَر يُشبه الأرجوحة التي نُعلقها بين الأشجار، ولكنها لم تكن بنفس الراحة. حتى مع البِطانات التي كنتُ أرتديها. معدلة من أوضاع أطرافي حاولتُ أن أضبط نفسي في وضعية أقلَّ ألمًا دون أيِّ نجاح بسبب تلك الضلوع الحديدية المزروعة في المشد. لم تكن فقط تؤلِم ذراعيَّ، ولكن كانت تنغز في قماش فستاني؛ مُذكرةً إيَّاي بكسين القاتل.. سكين...

أستلقي في هدوءٍ شديد.. آه.. آه.. لو فقط تمكنتُ من فِعلها.

بعد لحظات تفكير أفتح عينيَّ بما يكفي فقط لأرى كلب الحراسة ذا الصوت الحاد من خلف رموشي، يا لحُسن الحظ أنَّ تحفُّظي جعلني أنام على الجانب الأيمن المواجِه له لأُخفي القطع.

كان يجلس وظهرُه مواجه للسلَّم، ولكن كان رأسه مُتدليًا، غارقًا في النوم.

ولم لا؟! فطالما قد بقي في مكانه أمام السلَّم، كيف سيتمكن سجيناه من الهرَب؟

ولكن سنتعامل مع تلك المشكلة لاحقًا.

بأقصى درجات الصمت أدرتُ الجزء العلوي من جسدي محاولةً أن أضع مِعصميَّ المقيدَين على الضلع البارز من المشد، لم يكن الأمر سهلًا؛ حيث إن القطع في فستاني كان جانبيًّا، ولكن بمدٍّ ذراعي إلى أقصى مدًى بينما أدعم جسدي بمرفقي الآخر، وجززتُ على أسناني مانعةً أي أصوات من الخروج، استطعتُ أن ألفَّ الحبل الذي يربط يديَّ حول بروز المشد الحديدي.

كنتُ ملتويةً بدرجة كبيرة حتى استطعتُ بالكاد

أن أتحـرَّك، ولكـن بالرغـم مـن ذلـك تمكنـتُ مـن إخـراج الضلـع الحديـدي مـن قمـاش المشـد، ثـم بـدأتُ في محاولـة قطـع الحبـل، لـم أنظُـر ولا مـرة للـورد «تويكسـبيري»، وحاولـت ألَّا أفكـر فيـه وأن أوكـد لـذاتي أنـه نائـم، لأنـه لـو لـم يكـن نائمًـا كنـتُ سـأموت مـن العـار مـن منظـري الآن.

إلى أعـلى وإلى أسـفل.. إلى أعـلى وإلى أسـفل.. بصعوبـةٍ كبـيرة أقطـع قيـدي عـلى قطعـة الحديـد البـارزة، كان الأمـر مؤلمًـا واحتـاج إلى وقـتٍ طويـل، لا أسـتطيع أن أقـول كـم مـن السـاعات المؤلمـة قـد مـرَّت حيـث لـم يكـن هنـاك طريقـة أعـرف بهـا الصبـاح مـن المسـاء في تلـك الحفـرة. لـم تكـن هنـاك طريقـة أيضًـا لأعـرف إن كنـتُ أحـرِز أي تقـدُّم في قطـع تلـك الأربطـة؛ لأنـي لـم أكـن أرى مـا أفعلـه.

كنـتُ أشـعر في بعـض الأحيـان أنـي أقطـع جلـدي، ولكـني أحكمـتُ إغـلاق فـكِّي، وقطعـت أكـثر، وعينـاي ترتكـزان عـلى الحـارس النائـم، وأُذنـاي تجتهـدان لتسـمَعا أبعـدَ مـن أنفـاسي اللاهثـة.

كان أكـثر مـا سـمعتُه هـو حركـة الأمـواج، والصدمـات المكتومـة لانجرافـات القـارب ليرتطِـم بالرصيـف.

انتفـض الحـارس وقـد قرصَـه برغـوث، امتلكـتُ مـا يكفـي مـن الوقـت فقـط كي أفـرد جسـدي، ويـداي مـا زالتـا مُخبَّأتـين خلـف ظهـري قبـل أن يفتـح عينَيـه.

- أنتِ.

قال مُحدقًا إليَّ: لم تَهزِّين ذلك القارب اللعين؟

الفصل الثالث عشر

تجمَّدتُ منكمشةً مثل أرنبٍ في الغابة، ولكن من الجانب الآخر من باطن السفينة جاء صوت مُتغطرس قائلًا: لأي غرَض؟ أنا أرغب أن يهتزَّ القارب، أنا أُطالب أن يهتزَّ القارب، أنا آمُر هذا القارب أن يهتزَّ.

واهتزَّ القارب بالفعل لأنَّ الفيسكونت الصغير تويكسبيري ماركيز باسيلويذر كان مُتكئًا بظهره هازًّا سِجنَنا.

- أنت هناك.

انتقلتْ نظرة ذي الصوت الحادِّ له قائلًا: توقَّف.

التقت عينا لورد تويكسبيري وقال بتغطرُس: فلتُجبرني على ذلك.

- تُريدني أن أُجبرك؟

وقف ذو الصوت الحاد على قدمَيه: تعتقد أنك قوي. أليس كذلك؟ سأُريك.

مُكـوِّرًا قُبعتـه اتجـه نحـو تويكسـبيري، وبقيامـه بذلـك قـد أدار ظهـره لي.

جلسـتُ والْتويـتُ متكئـةً عـلى جانـب واحـد، لأتحسَّـس لأجـد نتـوءَ المشـدِّ بيـدي المُقيـدة.

بقـوة وحشـيةٍ ركل خاطِفُنـا اللـورد القصـير تويكسـبيري في قدمَيـه، لـم يُصـدِر الفـتى أي صـوت، ولكنـني كـدتُ أن أصرخ، أردتُ أن أضرب هـذا الرجـل الشريـر وأوقفـه. بالتأكيـد فقـدتُ عقـلي تمامًـا، وأنـا أناضِـل ضـدَّ تلـك الحبـال الـتي تربـط رسـغيَّ بشراسـة حـتى بـدا أني سـأخلع ذراعـيَّ مـن كتفـيَّ. ثـم انقطـع شيء، وآلَمَـني ذلـك بشـدة.. كان حـاد الصـوت يـركُل تويكسـبيري مـرةً أخـرى، والصـبيُّ يقـول: اسـتمر، فذلـك يُعجبـني.

ولكنَّ صوتَه المخنوق كان يُظهر أنه يكذِب.

كانـت ذراعـايَ تؤلِمانِـني بشـدة حـتى أنـني ظننـتُ أنـني كـسرتُ عظمـة بـدلًا مـن الحبـال حـتى وجـدتُ نفـسي أنظـر ليـديَّ وقـد قدَّمـا نفسـهما أمـام وجهـي كغُربـاء قذِريـن.

كانـت يـداي مليئتَـين بالخـدوش، داميتَـين، وتسـاقطت قطـرات الـدم مـن رسـغيَّ.

- يعجبك ذلك؟ سأتأكَّد أن أُعطيك ما يُعجبك.

بصوتـه الحـاد وهـو مـا يـزال يـركل اللـورد تويكسـبيري للمـرة الثالثـة بقـوة كبـيرة قـال حارسـنا الحقـير.

تلـك المـرة جـاء نشـيج تويكسـبيري، وفي نفـس اللحظـة وقفـتُ عـلى قدميَّ، كان كاحـلاي مـا يـزالان مُقيَّدَيـن، ولكـنَّ المـشي لـم يكـن ضروريًّـا حيـث إنـني كنـت أقـف مبـاشرةً خلـف خاطفنـا.

يـداي اللتـان عرفتـا مـا يجـب فعلُـه أكـثر مـنِّي اختارتـا صخـرةً كبـيرة مـن الصابـورة وكان ذو الصـوت الحـاد رافعًـا قدمَـه مُتأهِّبًـا لـيركُل مـرة أخـرى، وقبـل أن يفعـل ذلـك رفعـتُ سـلاحي البـدائي وأنزلتُـه عـلى رأسـه بـإصرارٍ عظيـم.

وقع دون صوتٍ في الماء الآسِن على الأرض.

وقفـتُ ثابتـةً أحـدِّق إليـه، حـتى صـاح فيَّ لـورد تويكسـبيري: يـا حمقـاء فـكِّي قيـدي.

كان الرجـل السـاقط أرضًـا باقيًـا كمـا هـو، جامـدًا في مكانـه، ولكنـه كان يتنفَّـس.

- فُكِّي قيدي يا بلهاء.

لهجـة الفـتى الحاسِـمة أعادتْـني للحركـة، أعطيتُـه

ظهـري.

- ما الذي تفعلينه يا مغفلة؟

كنـتُ أحافـظ عـلى مـا تبقَّـى مـن احتشـامي، ولكـنِّي لـم أخـبره بذلـك. أفـكُّ جـزءًا مـن فسـتاني، وأمـدُّ يـديَّ إلى الأمتعـة الـتي خبأتهـا أمـام بطـني، وأسـحب المديـةَ الـتي كنـتُ قـد أزلتُهـا مـن مجموعـة الرسـم خاصَّـتي، وخبأتُهـا مـع قلـم رصـاص وبعـض الأوراق المطويـة. بعـد أن أعـدتُ إغـلاق فسـتاني؛ فتحـتُ المديـة وانحنيـتُ وقطعـتُ الحبـال الـتي تربـط كاحليَّ.

لـم يتمكـن اللـورد تويكسـبيري مـن رؤيـة مـا الـذي أفعلُـه فتوقَّـف عـن إعطـائي الأوامـر حـتى أنـه بـدأ في التوسُّـل.

- أرجـوكِ، أرجـوكِ، لقـد رأيـتُ مـا حاولـتِ فعلـه، وسـاعدتُك.. أليـس كذلـك؟ أرجـوكِ أنـتِ...

- هشششششش.. لحظة.

بعـد أن حـررتُ قدمـيَّ، التفـتُّ وخطـوت مـن فـوق الحـارس، ثـم انحنيـتُ وبضربـةٍ واحـدة سريعـة قطعـتُ الحبـال الـتي تُقيـد يدَيـه خلـف ظهـره، ثـم ناولتُـه المديـة حـتى يسـتطيع أن يُحـرر قدمَيه بنفسـه.

في تثُّـورة فسـتاني المقطـوع مسـحتُ دمـاء رسـغيَّ،

نظرت إلى القطع في يدي ووجدت أنه ليس عميقًا بدرجة أن يكون خطيرًا، ثم تحسَّست شعري، الذي كان قد تشعَّث وقد فُكَّت كعكته، ونزل على كتفيَّ.

أجد بعض بنس الشعر في تموُّجاته، حاولتُ أن أستخدمها في إغلاق القطع في فستاني.

ممسكًا بمُديتي المفتوحة كسلاحٍ في يده، حثَّني الفيسكونت الصغير تويكسبيري الذي يقِف الآن على قدمَيه.

- هيا بنا.

كان مُحقًّا بالطبع؛ فلم يكن هناك وقتٌ لأُهندم نفسي. أهزُّ رأسي وأقترب من السلَّم الذي يقود إلى الحرية، ولورد تويكسبيري بجواري.

ما إن وصلنا حتى تردَّدنا وتلاقتْ أعيُننا.

- السيدات أولًا.

قال فخامته بشك.

- أُفضِّل أن يتقدَّم السادة.

رددتُ مفكرةً أنَّ على الفتاة ألا تضع نفسها أبدًا في وضعٍ يُمكِّن ذكَرًا أن ينظر تحت تنُّورتها.

غير مفكرة على الإطلاق فيما قد يكون في انتظارنا. هزَّ رأسه وهو ما يزال مُتشبثًا بالمدية،

تسلَّق تويكسبيري السلَّم. أعمتني الإضاءة ما إن فتح الكوَّة، قد مرَّ الليل وجاء النهار. لا أعلم بالضبط إن كان نهارًا أم بعد الظهيرة، كل ما كنتُ أراه من الومضات ما بين غمضات جفوني كان ظِلَّ الفيسكونت الصغير الحذِر وهو يمدُّ رأسه لينظر من حوله.

بهدوءٍ نحَّى فتحة الكوَّة جانبًا، وصعد على السطح، وحثني على أن أسرِع.

تسلَّقتُ بأقصى سرعة، لأُدرك أنه كان في انتظاري. يدُه ممدودة ليُساعدني على الصعود.

بالرغم من نعتِهِ لي بالحماقة والبلَه، والسذاجة، فإن الفتى كان يُظهر بعض آثار الشهامة.

كان من الممكن أن يكون أكثرَ حكمةً ويهرُب بدوني، ولكن بدا أنَّ من الصواب حيث إنَّنا كنَّا مسجونين معًا؛ أن نهرُب معًا.

بالتأكيد لم يخطر على بالي أن أترُكه خلفي، ومن الواضح أنه لم يفكر أيضًا في أن يتركني.

ما إن وصلتُ لأعلى السلَّم حتى أمسكت بيده. صوت فظيع جاء حاملًا سبَّةً لم أسمعها من قبل، أو حتى أتخيَّلها، بينما رأسي بالكاد قد خرج

مـن الكـوَّة.

رأيـتُ شـيئًا ضخمًـا طويـلًا قرمزيًّـا يـأتي مسرعًـا مـن كابينـةٍ قريبـة عـلى سـطح السـفينة مُتقدمًـا نحوَنـا. في تلـك اللحظـة المُروِّعـة عرفـتُ أن ذلـك الرجـل غـير النبيـل كان يرتـدي ملابـس داخليـة مكوَّنـة مـن فانلـة حمـراء قانيـة مُمتـدة مـن رسـغه حـتى كاحلـه.

واقفًـا عـلى قدَميـه حملـني تويكسـبيري مـن عـلى السـلَّم: هيـا بنـا.

دافعًا بي من أمام المجنون الأحمر.

- اركضي.

بـدا وكأنـه قـد نـوى أن يقِـف أمـام ذلـك الوحـش الغاشـم، بمُديتـه الصغـيرة.

- اركض أنت.

رفعـتُ تنُّـورتي، لفـوق ركبـتي، بيـدٍ وباليـد الأخـرى جذبتُـه مـن ياقتـه وأنـا أركـض بالفعـل في اتجـاه الجانـب الآخـر مـن القـارب.

معًـا -وقـد احتجـتُ إلى أن أتـرك ياقتَـه بالتأكيـد- ركضْنـا مـن فـوق المسـاحة المائيـة الصغـيرة الـتي تفصِـل بـين القـارب وبـين الألـواح الخشـبية الـتي أعتقِـد أنَّنـا يمكـن أن نُطلـق عليهـا رصيـف مينـاء،

وبعدها ركضتُ بأقصى سرعةٍ ممكنة في ذلك الممر الضيق غير الثابت مُمسكةً بتنُّورتي بكلتا يديَّ.

- لن تبتعِدا كثيرًا.

تردَّد الصوت الغاضب الشرِس قادمًا من خلفنا من القارب.

- انتظرا حتى أضع بعض الملابس عليَّ وما إن أضع يديَّ عليكما...

لطول قدميَّ فإني أحبُّ أن أركض، ولكني لا أحبُّ أن أتعثَّر في ملابسي. خاصةً حين أركض فوق متاهةٍ من الألواح الخشبية المُتعفِّنة. الكثير من الأرصفة والمياه المالحة، والمماشي الضيقة، ومياه نتِنة الرائحة بيننا وبين الحانات والمُستودعات القائمة على حافة نهر التايمز.

- أي اتجاه؟

قالها «تويكي» لاهثًا. نعم «تويكي» فأنا لا أستطيع أن أفكر فيه كلورد أو كفيسكونت أو كابن دوق، قد صار رفيقي الآن يلهَث خلفي مباشرةً.

- لا أعرف.

مُحاطَيْن بمياه قاتمة كالقطران، وصلنا إلى طريق مسدود. حاولنا ألا نفقد توازننا وننزلِق ونحن

ننطلِق بسرعة عائدَين من حيث أتينا، مرة أخرى. ذراع من الماء سدَّ طريقنا، بدأتُ بالارتجاف وكأني سقطتُ بالفعل في ذلك النهر الأسود، لو حدث ذلك ستكون نهايتي، سوف أغرق.

تساءلتُ إن كان «تويكسبيري» يستطيع السباحة، ولكن لم يكن هناك وقتٌ للتردُّد.

على بُعد مسافة ليست ببعيدة عدُوُّنا الضخم انطلق من كابينته مرة أخرى وقد وضع بعض الملابس على جسده الآن صارخًا: سأقتُلكما.

كدبٍّ يطارد فريسته انطلق من مركبته إلى متاهة الرصيف، والأسوأ من ذلك أن الوغد الصغير قد تبِعَه كما يتبع الكلب الجائع الشحَّاذ، ومن الواضح أني لم أضرب ذا الصوت الحاد بقوةٍ كافية، صرختُ: اقفز.

قفزتُ إلى رصيفٍ آخر، وتثُّورتي تتطاير، اهتز الرصيف من تحتي ولكنني تمكنتُ من الحفاظ على توازُني، وفي نفس اللحظة التي تنفَّست فيها الصعداء اهتزَّ الرصيف مرةً أخرى وتويكسبيري ينزل بجانبي مُحدثًا صوتًا عاليًا.

لم أملك أنفاسًا كافية لأُطلق صرخة، فخرج

مـنِّي عوضًـا عـن ذلـك عـواء أشـبَهُ بصـوت حبـل الغسـيل المعـدني.

جذب تويكي ذراعي صارخًا: اركُضي.

وتلك المرة كان هو من يقود الطريق.

في لحظـةٍ مـا كان قـد فقـد المُديـة، وكانـت يـدُه اليمـنى ترتجـف بـدون سـلاح. فـازداد ارتجـافي وقـد شـعرتُ بخطـوات القاتـل الثقيلـة عـلى الميناء تتبَعُنا.

صرخت: أوه.. لا...

ونحن نقِف في نهاية رصيف لا يؤدي إلى أي مكان.

قـال تويـكي شـيئًا لا يمكنـني أن أُكـرِّره، فقلـتُ وأنـا ألتفِـت: راقـب ألفاظـك. تعـال مـن هنـا.

اتخـذتُ زمـام القيـادة مجـدَّدًا، وخـلال عـدة لحظـات أخـيرًا وضعْنـا أقدامنـا عـلى أرضٍ صلبـة، ولكـن عدُوَّينـا اللذيـن كانـا يعرفـان طريقهمـا جيـدًا كانـا قـد وصـلا إلى الشـط في نفـس الوقـت خلفَنـا عـلى بُعـد مرمـى حجـر. كان يمكنـني أن أرى الدمـاء عـلى رأس سـكويكي، والغضـب الشـديد في عينَيـه اللئيمتَـين. وكان يُمكنـني أن أرى الشـعر القـادم مـن أذن القاتـل، والغضـب الأحمـر عـلى وجهـه الأشـبه بالطبـق، أعـترف أنـني صرخـتُ مـرة أخـرى بالتأكيـد. زعقـتُ كأرنـب

مُصاب، ودون أن أنظر ويد تويكي في يدي، فررتُ إلى شارعٍ ضيق ودخلتُ أول زاوية.

- أسرِع.

راكضين في خطوطٍ متعرِّجة بين عرباتٍ ثقيلة مُحمَّلة، تجذبها خيول. كنا نركُض بزاوية عبر الشارع في اتجاه المنعطف القادم.

كنتُ ما أزال أسمع الخطوات الراكضة التي تتبعنا وأنا مقطوعة الأنفاس، مُبتلَّة الوجه والفستان، شاعرة بحرارة اليوم بشكلٍ قوي.

تويكي كان يفقد القدرة على مُلاحقتي وأنا أجرُّه جرًّا، كنتُ أشعر بألَمِه مع كل خطوة. وقدماه الحافيتان قد تقرَّحَتا مع كل لمسة للأحجار الصلبة تحت قدميه.

وكان الطريق يتَّجه إلى أعلى، هاربَين من النهر.

- هيَّا بنا.

- لا أستطيع.

قالها الصبيُّ لاهثًا مُحاولًا أن يُحرِّر يدَه من يدي، شددتُ قبضتي عليها: بالتأكيد تستطيع، يجِب عليك.

- أنتِ اذهبي، أنقِذي نفسك.

- لا.

أُغمض عينيَّ في خوفٍ أعمى، وأنظر حولي ونحن نركض. يبدو أنَّنا نصِل إلى نهاية صفِّ العربات، ونهاية رصيف الميناء والمُستودعات. نحن الآن نركض في الشوارع الفقيرة حيث البنايات الرثَّة، والمتاجر الأكثر رثاثة.

بائع أسماك، محل رهنيات، مُصلح شمسيات، وباعة مُتجولون.

«بلح البحر الحي.. محارات حية»

«المُثلجات اللذيذة.. مثلجات الفراولة الباردة اللذيذة»

كان هناك بشر.. كان هناك عامل نظافة بعربة يجرُّها حمار، ورجل يدفع عربة يدٍ مليئة بالخردوات، وامرأة وفتيات يرتدين القبَّعات والمآزِر التي يجِب أن تكون بيضاء ولكن قد بهتت إلى لونٍ أقرب لِلَون الفُطر.

كانوا بشرًا ولكن لم يكونوا من النوع الذي قد يساعدنا، ولم يكن هناك ما يكفي منهم حتى يستطيع فتًى حافي القدمَين أن يذوب وسطهم؛ فما بلك بفتاةٍ منقطعة الأنفاس عارية الرأس،

ترتـدي فسـتان أرملـة مقطوعًـا ومُغطًّـى بالدمـاء.

- توقَّفا.. لصان.

جـاء الصـوت مـن خلفنـا، مَبحوحًـا، ولكـن مـا يـزال عاليًـا.

- أوقِفا هذَين الوغدَين.. الحقيرين.. نشالين.

اسـتدارت الأوجـه لتُحـدِّق بي أنـا وتويـكي، ولكنَّنـا هربنـا مـن خـلال شـارع الخـردوات.

محـلات أثـاث مُسـتعملة.. ملابـس مسـتعملة.. قبعـات مسـتعملة.. أحذيـة مسـتعملة.. ملابـس مسـتعملة مـرة أخـرى.. الوجـوه مـن حولِنـا كانـت تبـدو كضبـاب، بفعـل الحـرارة والهلـع، ولكـنَّ واحـدًا مـن تلـك الوجـوه الضبابيـة تعرَّفـتُ عليـه؛ لقـد رأيـت ذلـك الوجـه مـن قبـل ولكـن أيـن؟

وبينما نركض تذكَّرت: تويكي سريعًا.

جذبتُـه مـن الشـارع وانطلقنـا ناحيـة ممـرٍّ ضيـق بين منزلـين سـكنيَّين مُتداعِيَـين، وانعطفنـا بجـوار حظـيرة بقَـر وهربْنـا ونحـن نسـمع أصـوات البقـر القـذِرة مـن خلـف المبـاني، ورائحـة حمـار وماعـز وإوزة ودجاجـة.

انعطفنا مرة أخرى.

- لن تستطيعا الهرَب.

الصوت المُخيف تردَّد من خلف حظيرة البقَر.

كان قريبًا جدًّا.

- استسلِما!

هتف صوتٌ ثانٍ حاد.

صرخ «تويكسبيري»: حمقاء.

تقريبًا كان يُحدِّثني.

- لماذا ندور في دائرة؟ سيلحقان بنا.

- سترى، اتبعْني.

تاركةً يده، وتاركة آخِر ذرَّةٍ من التحفُّظ مزَّقتُ الجزء العلوي من ردائي راكضةً في زقاقٍ قذر، دفعتُ ساعدي إلى الأمتعة المُخبأة حول بطني، لامستْ أصابعي الأوراق فسحبتُ واحدةً مُخبِّئة إيَّاها في كفي، وأنا أنعطف للركن الأخير مرة أخرى عائدة مرة أخرى للشارع.

اندفعت نحو محل ملابس مُستعملة، كانت صاحبة المحل واقفةً على الباب، متأمِّلةً الشارع ومُستمتعةً بالنسيم البارد، ولكن حين رأتني متجهة ناحيتها تغيَّر تعبير وجهها المُسترخي إلى توجُّس.

بدلًا من أن تبدو كضفدعة بدت كفأرٍ تحت مِخلب القط.

- لا.

شهقتْ قائلة وأنا أركض ناحيتها: «كتر» سيقتُلني.

- ذلك أكثر ممَّا تساويه حياتي!

لـم يكـن هنـاك وقـت للنقـاش؛ تويـكي وأنـا كان لدينـا لحظـات قبـل أن يظهـر الشريـران مـن خلـف الزاويـة ويَرَيانـا.

في تلـك اللحظـة كنـتُ قـد وضعـت ورقـة بنكنـوت مـن فئـة المائـة جنيـه في يـدِ مـن أظـنُّ أنهـا السـيدة «كالاهـان»، وجذبـت «تويـكي» مـن كُمِّـه، لأجـرَّه معـي إلى محـل «كالاهـان» للملابـس المُسـتعمَلة.

الفصل الرابع عشر

ألهـثُ مُلتقطـةً أنفـاسي ونحـن ننطلـق إلى غرفـة قاتمـة قـذرة فوضويـة، والـتي شـعرنا أنهـا ضيقـة كفُـرن. عـلى جانـبٍ مـن الحائـط عُلِّقـت عبـاءات ومعاطـف. كي نختـبئ سريعًـا غُصْنـا في ثنايـا تلـك الملابـس، راقبـت البـاب الأمامـي مرتجفـةً مُطبقـة اليـد مُنتظـرةً لأرى إذا كانـت رشـوتي سـتنجح.

همس تويكي: اختبئي تحت المنضدة.

هـززتُ رأسي أن «لا»، وأنـا مُستعدة للفـرار، مُحدِّقة إلى البـاب الأمامـي والنافـذة. رأيـت كيـف انشـقَّ المـارَّة ليفسـحوا مجـالًا للقاتـل الضخـم وتابعـه ذي الصـوت الحـاد وهمـا ينطلقـان بسرعـة كبـيرة في وسـط الطريـق، ماسِـحَين بأعينهـم الغاضبـة في كل الاتجاهـات.

رأيـتُ الضخـم يمسـك بواحـدٍ مـن المتسـكعين مـن ياقتـه يـكاد أن يرفعـه مـن عـلى الأرض، أشـار المسـكين باتجاهنـا. أيـن ذهبـت السـيدة كالاهـان؟ أنـا لا أعـرف، ولكـن هـا هـي مـرة أخـرى كانـت واقفـة مُوجِّهـة ظهرهـا لي. بـدت كسـلحفاة ترتـدي مـئزرًا يمتـد خَيطـه

عـلى وسـطها.

عدُوُّنـا ذو الوجـه البيضـاوي، وتابعـه تقدَّمـا باتجاههـا، كانـا يفُوقانهـا طـولًا حـتى سكويكي الضعيف كان أكـثر طـولًا منهـا، ولا أعتقـد أنـني شـخصيًّا كنـت سـأتمكن مـن مُجابهـة نظراتهمـا المُخيفـة، ولكـن المرأة العجـوز احتلَّـت المدخـل كسَـدٍّ. رأيتهـا تهـزُّ رأسـها ورأيتهـا تُشـير ناحيـة نهايـة الشـارع، ورأيـت أشـعة الشـمس القادمـة مـن البـاب تـدور حولهـا كهالـة قِدِّيسـين مجيـدة، ورأيـت الشريرَيـن اسـتدارا ليرحـلا.

مُتعلقـةً بـرداء أحدهـم القديـم كي أتماسـك، ارتخـى جسـدي عـلى الحائـط شـاعرة بالراحـة.

تويكي ثنى جسده ليسقط على الأرض كالغريق.

السيدة كالاهـان بحكمـةٍ لـم تـأتِ عـن فورهـا بعـد رحيلهمـا، ولكنهـا وقفـتْ أمـام البـاب لبرهـة.

وقـتَ أن دخلـت كنـتُ بالفعـل قـد اسـترجعتُ قـوتي، ووجـدت غرفـةً خلفيـة بهـا صنبـور مـاء.

غمسـتُ فانلـةً حمـراء باهتـة ووضعتُهـا عـلى وجـه تويـكي. عندمـا وقـف وجَّهـت انتباهـي لقدميـه المُتألِّمتـين، ماسـحة عليهمـا بخرقـةٍ محاولـة أن أزيـل القـذارة والدمـاء دون أن أؤلِمـه كثـيرًا.

كنت أفحص باطن قدَميه المُصابتين حين جاءت مُنقذتنا الشبيهة بالضفدعة.

أغلقت باب المحلِّ وسكَّرتُه، أنزلت الستائر وتهادت إليّ.

- حسنًا.

قالت:

- في يومٍ أنتِ أرملة حزينة، اليوم التالي تَصيرينَ فتاة منكوشة الشعر، وتهرُبين من «كتَر» و «سكويكي».

- بالتأكيد.. ومن يكون هؤلاء السادة؟ لم تُتَح فرصة للتعارُف.

- لا شكَّ في ذلك، وتلك ربطة بطني التي تستخدِمينها كخِرقة.

وقفتُ قائلة: يا إلهي الرحيم أعتقِد أني دفعتُ لكِ ثمنها.

واجهتْني دون ابتسامةٍ أو بهجتِها التي كانت مثل العصفور صباح اليوم، أعتقد أنها لن تدعوني بطَّتي بعد الآن.

قالت: ما أعطيتِني إيَّاه ذهب إلى الجيران؛ فالآخرون رأوا أين ذهبتِ.

ولا بـدَّ أن ذلـك كان حقيقيًّـا نوعًـا مـا، فقـد اختفـتْ مـن البـاب الأمامـي لتتفـاوَض مـع الواقفـين مـن أجـل صمتِهـم، ولكـن مـن الدهـاء الـذي يُمكنـني أن أراه في عينَيهـا فـكان نوعًـا مـا غـير حقيقـيٍّ أيضًـا.

لقـد وعـدت الجـيران ببعـض الشـلينات، أو ربمـا بعـض الجنيهـات عـلى الأكـثر، ومـع ذلـك كان هنـاك شيء صـادق في كآبـة وجههـا وهـي تقـول لي: مـن الأفضـل أن يكـون هنـاك المزيـد ممَّـا أعطيتِـني إيَّـاه، فـ«كـتر» سـيُمزِّق أحشـائي لـو عـرف، تلـك حيـاتي الـتي أخاطـر بهـا مـن أجلـك.

قلـت لهـا: لـو وفَّـرتِ لي مـا أحتاجُـه سـيكون هنـاك المزيـد.

وعـلى ذلـك فإننـا في اليـوم التـالي أنـا وتويـكي خرجْنا في الخفـاء مـن محلِّهـا عـن طريـق البـاب الخلفـي، وقـد اسـتعدْنا قوَّتنـا، وتحوَّلنـا تمامًـا.

كنـا اسـتخدمنا مطبخهـا القـذر كمـأوًى حيـث كانـت تسـكن في ثـلاث غـرف في الطابـق الأول فـوق المحـل، وقبِلْنـا عصيدتهـا المُتكتِّلـة بالكثـير مـن العرفـان. نِمنـا؛ أنـا عـلى أريكـةٍ ذات رائحـة كريهـة، وتويـكي نـام أرضًـا عـلى غطـاء.

استحمَمْنا ووضعْنا مرهمًا مصنوعًا لضرْع البقر على قدمَي تويكي، ثم لففْناهما في بعض الضمَّادات.

وارتدينا ملابس مستعملة من محل كالاهان، وحرقْنا ملابسنا القديمة في فُرن المطبخ.

لم نتحدَّث، ليس حتى لنُخبر بعضنا بأسمائنا؛ فمُضيفتنا ذات الوجه غير الودود لم تُوجِّه إلينا أي أسئلة، ونحن لم نتطوَّع بأي معلومات، تويكي وأنا لم نتحدَّث حتى مع بعضنا بعضا خوفًا من أن تسمَعَنا، لم أكن أثِق بها، ولم يكن لديَّ شكٌّ أنها ستفرِّق بيني وبين مالي إذا عرفتْ أين أحتفظ به؛ لذا فإني لم أنزع ملابسي قطُّ في حضورها، ولم أنزع المشدَّ على الإطلاق حتى حين ذهبتُ إلى النوم؛ فقد كانت قطعة الملابس تلك التي كرهتُها من كل قلبي قد صارت أهمَّ وأغلى ما أملك؛ أهم شيء ألا أُضيِّق المشد. كانت الأجزاء الحديدية به قد أنقذت حياتي، وتصميمه القاسي قد أخفى حشوَ الأرداف ومُحسِّن الملابس اللذين خبأت فيهما أموالي.

كنت أومن وأتمنَّى أن السيدة «كالاهان» -لو كان ذلك اسمها الحقيقي- لن تكتشف ذلك السر.

تحدَّثنا فقط في حدود العمل؛ فستوفِّر لنا من محلها ملابسَ غير باليةٍ من أجل صَبي، وقُبعة وحذاء، وجوربًا سميكًا.

وبالنسبة لي؛ بلوزةً وتنُّورة قديمة كي أبدو ككاتبةٍ أو فتاة مبيعات، مصنوعَين من خاماتٍ خاصة، ولهما جيوب، وسُترة أيضًا بجيوب، حافتها واسعة لتكون مناسبةً فوق التنُّورة. وقفازات ليست فاخرة، وقبعة لا تبدو قديمة جدًّا، وتُساعدني في تزيين شعري.

شعرتُ أني عارية في أعين العالم وأنا خارجة من المكان دون غطاء الوجه الأسود الخاص بالأرامل الذي كان يُخفي وجهي، ولكن الحقيقة هي أنه حتى أخوايَ لم يكونا ليتمكَّنا من التعرُّف عليَّ.

نظرت بصعوبة من خلال النظارات الأنفية المشبوكة على أنفي كمِثل طائر معدني غريب. وفوق النظارات كان هناك شعر مُستعار ليُزين ويخفي جبيني، ويساعد النظارات على تغيير مظهري، وفوق الشعر ارتديتُ قبعة من القشِّ مُزينة بالشرائط والريش كانت تُشبه أي قبعة قشٍّ أخرى قد ترتديها أي شابة مكافحة في المدينة.

قلتُ للسيدة كالاهان: والآن أحتاج فقط إلى

مظلَّـة.

أعطتْـني واحـدة مصبوغـة بلـونٍ أخـضر بشِـع ولكنـه كان رائجًـا، ثـم اصطحبَتْنـا إلى البـاب الخلفـي وأشـارت لنـا بيدِهـا؛ فوضعـتُ في كفِّهـا كمـا وعدتُهـا ورقـة بنكنـوت أخـرى وخرجْنـا لتُغلـق خلفَنـا البـاب دون كلمـة.

حـين وصلْنـا إلى الشـارع كنـتُ أُمثِّـل أني أواجِـه صعوبـةً في المـشي وكأنـني نصـف عميـاء. أتحسَّـس الطريـق بمظلَّـتي المطويـة، فعلـتُ ذلـك جزئيًّـا كتَمويـهٍ وجزئيًّـا حـتى يسـتطيع تويـكي بقدَمَيـه اللتـين لا تـزالان تؤلِمانـه أن يتظاهـر أنـه يمـشي ببـطءٍ مـن أجـلي.

ملابسـنا لـم تكـن جديـدة ولـم تكـن باليـة، لـم تكـن ملابـس أغنيـاء ولا ملابـس فقـراء.

أمَّلـتُ أن نسـتطيع الهـروب مـن أي نظـراتٍ فضوليـة، حيـث إني لـم أُرد أن يحمـل أحـد أخبارنـا إلى «كـتر». ولكـني لـن أحتـاج إلى أن أقلـق؛ فمِـن حولنـا كان الجميـع يمـارس أعمالـه بصخـبٍ غـير مُلاحِظـين إيَّانـا عـلى الإطـلاق.

لنـدن.. تلـك المدينـة العظيمـة المصنوعـة مـن

الطـوب والحجـارة، تبـدو دائمًـا في حالـة غليـان بنشـاطٍ بـشري دائـم. رجـل بعربـة يـد كان يصيـح: بـيرة بالزنجبيـل.. بـاردة وطازجـة.. بـيرة بالزنجبيـل.. دعهـا تُـبرِّد حلقـك المُغـبَّر.

عربـة ميـاه مـرَّت بنـا، مـن خلفهـا كان صِبيـة ينظفِّـون الطريـق بالمقشَّـات.

رجـل توصيـل كان يبـدِّل عـلى دراجـةٍ ثلاثيـة عجيبـة، حيـث كان هنـاك عجلتـان في المُقدمـة بـدلًا مـن المؤخِّـرة، وصنـدوق كبـير مربـوط بـذراع العجلـة.

عـلى الناصيـة وقـف ثلاثـة أطفـال ذوو شـعر داكـن يغنُّـون في تناغُـمٍ كالملائكـة بلُغـةٍ لـم أعرفهـا.

كان أوسـطهم قـد مـدَّ يديـه بكـوبٍ صـدئ يطلُـب بنسـات، مـن خلفـه وفوقهـم كان هنـاك رجـل رثُّ الثيـاب واقفًـا بعلبـة طـلاء عـلى السـلَّم وفرشـاة، يلصـق إعلانًـا عـن منظـف أحذيـة.

رجـال في سُـترات بيضـاء وسراويـل بيضـاء يعلِّقـون إشـعارَ حجْـرٍ عـلى بـاب واحـدٍ مـن المبـاني السـكنية. تسـاءلت للحظـةٍ: مـا نـوع المـرض اللَّعـين الـذي جلبَـه نهـر التايمـز النـتِن؟ وإن كنـتُ سـأموت مـن الكولـيرا أو الحُمَّـى القرمزيـة بعـد أن حططـتُ في مركـب «كـتر».

«كـتر».. ذلـك الهمجـي السـاحر. في واحـدٍ مـن جيـوبي بجانـب الأمـوال وأشـياء أخـرى مُفيـدة حملـتُ قائمـةً كتبتُهـا في سـاعات أرقٍ في الليـل.

لماذا كان «كتر» يفتّش فى القطار؟

ولماذا تَبعنى؟

لماذا ظنّ أننى أعرف أين أجد «تويكى» ؟

ما الذى كان يريده من «تويكى» ؟

لماذا أرسل برقية لـ «سكويكى» ليبحث عن «تويكى» على أرصفة الميناء؟

ما الذى كان يقصده حين قال الشىء نفسه؟

هل هو مختطف محترف؟

وكيف عرف أىّ شىءٍ عن «تويكى» ؟ وعن الشرق الأعظم؟

كيف حقًّا؟

لقـد أخـبرتُ المفتـش «ليسـتراد» ومـدام... مـاذا

كان اسمها؟ تلك الـ.. البريديتوريان قد سمِعَتْنا، هل أخبر المُفتش «ليستراد» آخرين؟

ربما.

ولكن بالتأكيد كان سيأخُذ خطواتٍ ما للتحقُّق من المعلومات أولًا، ولكن تلك البرقية لا بدَّ أنها أُرسلت لـ«سكويكي» على الفور.

إمممم...

كانت تلك أفكاري بينما أنا ورفيقي الأعرج كنَّا قد دخلنا لحيٍّ أفضل، هنا وجدْنا متنزَّهًا نوعًا ما؛ كان رقعة من الحشائش تُحيطها أربع أشجار، تحتها كانت النساء تدفع عربات الأطفال ورجل كان يصيح كالحمار: جولات فرِّح طفلك.. فقط ببنسٍ واحد.

بجانب المُتنزَّه رأيتُ عددًا من عربات الأجرة، أستطيع أن أستأجِر واحدةً حتى لا يضطرَّ اللورد الصغير أن يتألَّم أكثر من ذلك ماشيًا على قدمَيه.

حتى الآن كنَّا مُحتفظين بحذَرِنا ولم نتحدَّث على الإطلاق، ولكن حيث إنَّنا كنَّا قد تركنا مطاردة «كتر» خلفنا؛ فقد التفتُّ لرفيقي وابتسمت.

- حسنًا تويكي.

- لا تُناديني بذلك.

اعتدلتُ وأنا أقول: حسنًا، لورد تويكسبيري من باسيلويذر أو لا...

كان حنَقي جعلَني لا أفكر وخطرتْ على بالي فكرة الآن فسألت: ما الذي عليَّ أن أناديك به؟ ما الاسم الذي اخترتَه لنفسك حين هربْتَ؟

- أنا...

ثم هزَّ رأسه، والتفت بوجهه بعيدًا: لا عليك، لم يعُدِ الأمر مُهمًّا.

- لماذا؟ ما الذي ستفعله؟

- لا أعرف.

- أما زلتَ تريد أن تذهب إلى البحر؟

استدار ليُحدِّق إليَّ: أنت تعرفين كلَّ شيء، من أنتِ؟ هل أنتِ حقًّا تقربين لـ«شيرلوك هولمز»؟

عضضتُ شفتيَّ حيث شعرتُ أنه ليس آمِنًا أن أُخبره أيَّ شيء أكثر عن نفسي. فقد كان يعرف الكثير بالفعل، لحُسن الحظ وفي تلك اللحظة صاح بائع الصحف من الزاوية بالقُرب من موقف عربات الأجرة: اقرأ الآن، طلبوا فديةً على «فيسكونت تويكسبيري من بسيل ويذر»...

- ماذا؟

هتفت: ذلك غير معقول.

كـدتُ أن أنـسى إكمـال تمثيـل أني بالـكاد أرى، وهُرعـت لأشـتري جريـدة.

تطوُّرٌ درامي في قضية الاختطاف.

قـرأتُ العنـوان، ومـرة أخـرى كانـت صـورة «تويـكي» هنـاك. جالسًـا بجـواري عـلى دكَّـة في الحديقـة حـتى يتمكـن كلانـا مـن رؤيـة الجريـدة في نفـس الوقـت.

أصدر تويكي صوتًا خافتًا في قنوط: تلك الصورة.

قلتُ له: لقد رآها العالَم بأكمله.

أعـترِف أنـني قلتُها بدرجـةٍ مـا مـن التشـفي. بعدهـا حيـث إنـه لـم يـرُدَّ عـلى الفـور؛ تأمَّلتُـه، لأجِـد أنَّ وجهـه قـد احمـرَّ مـن الخِـزي، ثـم قـال: لا أسـتطيع العـودة، لـن أعـود أبـدًا.

اختفـت كل البهجـة وأنـا أسـأل: ولكـن مـاذا لـو تعـرَّف أحدهـم عـلى الصـورة؟ السـيدة «كالاهـان» عـلى سـبيل المثـال.

- هـي؟ مـتى رأيتِهـا تنظُـر إلى جريـدة؟ لا يمكنهـا القـراءة حـتى. في تلـك الأنحـاء لا أحـد يسـتطيع القـراءة، هـل رأيـتِ أيَّ بائـع صحـف عـلى أرصفـة المينـاء؟

كان مُحقًّـا بالطبـع، ولكـن بـدلًا مـن أن أعـترف بذلـك، فقـد وجَّهـتُ انتباهـي إلى الكلمـات الموجـودة في المقـال.

«في تطوُّرٍ مُفاجئ للأحداث وفي صباح هذا اليوم جاءت مطالبة بفدية غير موقّعة لمنزل «باسيليويذر» في بلفدير، المكان الذي كان موقع اختفاء فيسكونت تويكسبيري ماركيز «باسيليويذر»، بالرغم من اكتشاف رئيس المُحقّقين «ليستراد» أدواتٍ بحرية تخصُّ اللورد الصغير في مخبئه الذي صنعَه في واحدة من الأشجار».

- أوه لا.

همس «تويكي» وهو مُنزعج والكرْب على وجهه.

قرأتُ دون تعليق.

«وكان المُحقّق قد بدأ تحرّيات حثيثة على أرصفة ميناء «لندن»، حيث أكد عدّة شهود أنهم رأوا الصغير في نفس يوم اختفائه

(يوم واحد بعد اختفائي، الكثير حدث منذ ذلك.. من صعب التصديق أنَّ ذلك كان منذ ثلاثة أيام فقط حين تركتُ منزلي في فرنديل)

يبدو الآن أنّ الفيسكونت وريث لقب وثروة بسيل ويذر قد اختُطف بالفعل. وصلتْ رسالة الفدية مع البريد الصباحي، كانت رسالة قصيرة مكوّنة من عدة أحرف مجمّعة مقصوصة من الجرائد، ولُصقت معًا مطالبةً بمبلغٍ كبير، وبناءً على رغبة الأسرة فإنّ ذلك المبلغ لن يُعلن عنه.

وحيث إنه لا يوجَد أي دلائل على أنّ لورد تويكسبيري قد وقع في أيدي فرد أو مجموعة من الأفراد غير المعلومين، فإنّ السلطات قد نصحت بعدَم دفع الفدية.

بينما مدام ليليا سيبيل دي بابافر البرديتوريان الشهيرة قد نصحت بقوّة أن تدفَع العائلة الفدية وأن تُجمَع على شكل جنيهات ذهبية وعُملات تذكارية في انتظار تعليمات التبادُل؛ حيث إن تواصُلها مع عالَم الأرواح أخبرها أن فيسكونت تويكسبيري بالفعل مُحتجز وحياته في خطر حتى يحصُل الخاطفون على تعاون العائلة التام».

مدام «ليليا»...

كان هناك المزيد، ولكن كنتُ قد توقَّفت عن القراءة عند تلك الفقرة، وحدَّقت إلى...

حدَّقت إلى موقف عربات الأجرة. حقًّا كان ذلك الشيء الوحيد الموجود أمامي أنا وتويكي، عربات أجرة أنيقة وإن كانت خرقاء، ولكن بها مساحة كبيرة، تسير على أربع عجلات، تجرُّها أحصنة لامعة، وأحصنة هزيلة، تؤرجِّح ذيولها وهي تمضغ التِّبن داسَّةً أنفها في كيس سائقي العربات المُمتلئين. وسائقو العربات ذوو الملابس الرثة يتلكئون مُنتظرين أن يُستأجروا. ولكن لم يكن

ذلـك المنظـر مـا يجـذِب عيـنيَّ، ولكـني كنـتُ أحـاول تذكُّـر شـكل مـدام ليليـا، ولكـن الكثـير قـد حـدث في الثلاثـة أيـام الماضيـة، فلـم يتبـقَّ غـير انطباعـي الأول عنهـا وعـن شـعرِها الأحمـر، ووجههـا الكبـير وجسـدها الضخـم، ويديهـا الكبيرتَـين، وقفَّازهـا الأصفـر...

صوت صغير قال: عليَّ أن أعود.

احتجـتُ إلى لحظـةٍ لأنقـل انتباهـي وتركـيزي عـلى «تويـكي»، كان شـاحبًا، وسـيمًا وصغـيرًا.

بادَلَـني نظـرتي قائـلًا: يجِـب عـليَّ الذهـاب إلى المـنزل. لا أسـتطيع أن أدع أولئـك الأوغـاد المَلاعـين يسرقـون عائلـتي.

هـززتُ رأسي: إذن، ألدَيـك فكـرة عمَّـن أرسـل بطلب الفدية؟

- نعم.

- وأنـت تتخيَّـل مثـلي أنهـم مـا يزالـون يبحثـون عنـك؟

- يبحثون عن كلينا، نعم.

- من الأفضل إذن أن نذهب إلى الشرطة.

- أعتقد ذلك.

ولكـن نظرتَـه ارتحلـت مُدققًـا في حذائـه الجديـد

(جديد فقط من ناحية حصوله عليه، ولكن من الواضح أنَّ الحذاء قد جُمِّع من عدة قِطع من جلد أحذية قديمة).

انتظرت.

أخيرًا قال: لم يكن الأمر كما توقَّعتُه على أي حال. الميناء أعني.. فالمياه كانت قذِرة، والناس أيضًا. لا يحبُّون الشخص الذي يحاول أن يُبقي على نظافته. يعتقدون أنه شخص مُتكبِّر. حتى الشحَّاذون يبصقون عليَّ. أحدهم سرق أموالي، وحذائي، وحتى جواربي. بعض الأشخاص حُقراء، إنهم يسرقون حتى من الزاحِفين.

- الزاحفون؟

- يطلقون عليهم النيام، لأنهم دائمًا ناعسين، لم أرَ في حياتي أشخاصًا هزيلين مثلهم.

خفض صوته مُكملًا: سيدات عجائز لا يملكنَ أي شيء، لا يملكن حتى القوَّة أن يقفنَ على أقدامهن. يجلسنَ أمام سلالم الملاجئ نصف نائمات، ولا يجدنَ حتى مكانًا يضعنَ رءوسهن عليه. أقرب إلى الموتى لا يستطِعنَ حتى الشحاذة. ولو أشفق أحدهم عليهنَّ ببنس ليشترين الشاي؛ يزحفنَ

ليبتعنَـه.

شـعرتُ بغصَّـةٍ في قلـبي وأنـا أتذكَّـر العجـوز الصلعـاء الـتي رأيتُهـا مـن قبـل تزحـف عـلى الرصيـف، وقـد كان رأسـها مليئًـا بالتقرُّحـات.

أكمل تويكي: ثم يزحفنَ عائداتٍ مرةً أخرى.

كان صوتـه يصـير أكـثر انخفاضًـا ويجـد صعوبـةً أكـبر في التحـدُّث مـع كل حـرف: وهنـاك يجلسـن، ثـلاث مـرَّات في الشـهر يُسـمح لهـنَّ بوجبـةٍ ونـوم ليلـة داخـل الملجـأ، ثـلاث مـرات. وإذا طلـبنَ أكـثر مـن ذلـك، فإنهـنَّ يُسـجنَّ، ويُحكـم عليهـنَّ بثلاثـة أيـامٍ مـن العمـل الشـاق.

- مـاذا؟ ولكـني اعتقـدتُ أن الملاجـئ مـن المُفـترَض أن تسـاعد التُعَسـاء أمثالهـن!

- اعتقـدتُ ذلـك أيضًـا، وذهبـتُ هنـاك أسـأل إذا كان يُمكنـني الحصـول عـلى حـذاء، فـ... فـ... ضحكوا عـليَّ، وضربـوني بعصًـا. اقتـادوني بعيـدًا وبعـد ذلك... ذلـك الرجـل البغيـض...

كانـت ذِكـرى «سـكويكي» تمـلأ عينَيـه بالدمـوع فتوقَّـف عـن الـكلام.

- أنا سعيدة أنك قرَّرتَ الذهاب إلى المنزل.

قلتُ له بعد لحظة.

- أمـك سـتكون في سـعادةٍ كبـيرة حـين تـراك، لقـد كانـت تبـكي، هـل تعلـم ذلـك؟

هـزَّ رأسـه مُتقبـلًا دون سـؤال أنَّـني أعـرف مثـل تلـك المعلومـة، فقـد بـدَوتُ وكأني أعـرف كل شيء.

- وأنـا متأكـدة أنـك سـتسـتطيع أن تُفهمهـا أنـه لا يمكنـك ارتـداء ملابـس «لـورد فونتلـوري» تلـك بعـد الآن.

قـال بصـوتٍ هـادئ: أي نـوعٍ مـن الملابـس لا يُهم، لـم أعـرف من قبـل...

لـم يُكمـل، ولكـن أعتقِـد أنـه كان مـا يـزال مُفكـرًا في النيـام، السـيدات نصـف الأحيـاء المَسـكينات، الـلاتي يزحفـن، أو ربمـا كان يُفكـر في حَفـاء وتقرُّحـات الأقـدام و«سـكويكي»، وركلِـه إيَّـاه ككلـب.

يومـان في لنـدن جعـلاني عـلى درايـةٍ بأشـياء كثـيرة لـم أعرفهـا مـن قبـل، والآن وقـد عرفـتُ كان سـوء طالعـي يبـدو كـشيءٍ لا يُذكـر.

وقفـتُ وأشرتُ إلى عربـة أجـرة، عربـة مفتوحـة جميلـة، فقـد أردتُ أن نرحـل في أناقـة.

تويـكي أعطـاني يـدَه كسـيدٍ مهـذَّب، لأسـتند عليهـا

وأنـا أصعـد العربـة، بينمـا وجَّهـتُ السـائق قائلـة: إلى «سـكوتلاند يـارد».

الفصل الخامس عشر

بجانب مصاحبة «تويكي»، كان لديَّ مهمة خاصة بي في «سكوتلاند يارد».

- إن ذلك جميل.

قال «تويكسبيري» وهو يمسح بعينيه «لندن» من عربة الأجرة، والحصان يُهرول بنا، وسرجُه يهتزُّ أمامنا، صببتُ كامل انتباهي على أفكاري فقط، هناك أشياء يجب الاهتمام بها، بخصوص «كتر»، ومدام ليليا سيبيل دي بابافر، البريديتوريان المُنجِّمة.

لم أملك أي دليل، ولكن كلَّما قلبتُ الأمور في رأسي؛ اعتقدت أنه ولا بدَّ أنهم متورطون في حلقة الخطف تلك معًا.

مُستدلَّةً بالآتي: هي أخبرته عني، فمَن سواها يمكن أن يفعل ذلك؟ الحارس؟ الدوقة؟ الخدَم؟ غير مُحتمل.

مِن كل مَن قابلتهم في «باسيلويذر» فقط المُحقق ليستراد ومدام ليليا قد سمِعاني وأنا أصف المكان

الـذي يوجَـد فيـه لـورد تويكسـبيري.

واحـد مـن أولئـك الاثنـين تواصَـل مـع «كـتر»، وجعلـه يرسـل برقيـة لـ«سـكويكي» ليحتجـز «تويـكي».

بالتأكيـد لـم يكـن «ليسـتراد»، فالنتيجـة واضحـة إذن، ولا بـدَّ أنهـا كانـت مـدام «ليليـا».

قـال «تويـكي»: لـم أفهـم أبـدًا لمـاذا يضعـون السـائق في الأعـلى بعيـدًا عـن الحصـان، الآن يُمكنـني أن أرى؛ فهـم يفعلـون ذلـك حـتى لا يعـوق رؤيـة المنظـر.

- إمممممم.

تمتمـتُ وأنـا مـا أزال أُكمِـل أفـكاري السـوداوية عـن مـدام ليليـا. بينمـا تظهـر وكأنهـا عـلى جانـب الملائـك؛ فتلـك المـرأة في الحقيقـة قـد تعاقـدت مـع الشـيطانين «كـتر» و«سـكويكي». أحـزُر أنهمـا يختطفـان الضحيـة، وبعدهـا يتـمُّ التواصـل مـع مـدام «ليليـا» لتقـدِّم خدماتهـا المَشـبوهة، وبذلـك وبينمـا «كـتر» و«سـكويكي» يحصـلان عـلى الفديـة؛ فمـدام ليليـا أيضًـا تحصُـل عـلى أجـرٍ كبـير مـن أجـل رؤياهـا الروحانيـة بخصـوص مـكان الشـخص المفقود، والجميـع يصـير رابحًـا، وكلهـم في ذلـك العمل الفاسـد

سـويًّا.

في حالـة «تويـكي»؛ فبالرغـم مـن أنـه قـد هـرب في البدايـة، فقـد انتهـز «كـتر» و «سـكويكي» الفرصـةَ ليختطفـاه بعدَهـا.

بينمـا أنـا غـير متأكـدة بالضبـط كيـف سـيُمكنني أن أخـبر السـلطات دون تعريـض نفـسي للخطـر، أعلـم جيـدًا أنـه يجِـب عـليَّ أن أفعـل شـيئًا لأوقـف أولئـك الأشرار.

قـال «تويـكي»: كـم هـو لطيـف أن يشـعُر المـرء بنسـمات الهـواء عـلى وجهـه في يـومٍ حـار.

فـتًى مُزعـج، هـل يجـب عليـه أن يُثرثـر هكـذا مثـل العقعـق؟

دون أن أجيبـه وشـفتايَ مُطبقتـان وضعـتُ يـدي في جيـب التنُّـورة وأخرجـتُ قلمًـا رصاصيًّـا وقطعـة ورق مطويـة.

وبسرعـةٍ وبغضـبٍ وأنـا واضعـة الورقـة عـلى سـاقيَّ. رسـمتُ صـورة لرجـل في تفاصيلهـا قليـل مـن المُبالغة، وحـين رأى «تويـكي» مـا أفعلـه توقَّـف عـن الحديـث، وحـدَّق بي.

ثم قال: ذلك «كتر».

دون أن أُعلق أنهيتُ الرسمة.

- ذلك «كتر» بكل تفاصيله حتى شعر أذنه، أنت تُدهشيني؛ كيف يمكنك أن ترسمي هكذا!

دون أن أُجيب أقلب الورقة المطوية وعلى المساحة الخالية أرسم شخصًا آخر.

لأني قد وجدتُ نفسي في حالةٍ ذهنية مناسبة، فكري مشحوذ، ونشيطة، تمكَّنتُ من أن أفعلها دون تردُّد، ودون وعي، ودون تفكير.

كانت خطوط القلم الرصاص سريعةً وواضحة. تأتي من مصدرٍ ما عميق بداخل عقلي.

سأل «تويكي»: من هذه؟

مرة أخرى لم أردَّ وأنا أُنهي البورتريه الخاص بسيدة مهيبة وكبيرة. فردْتُ الورقة ونظرتُ إلى كلتا الرَّسمتَين معًا، رجل الكاريكاتير والمرأة الكريكاتيرية وقفا جنبًا إلى جنب.

عندها قد عرفت، بالطبع.. لتكون امرأة كلُّ ما تحتاجه هو أن تضع شعْرًا مُستعارًا، وبعض التحسينات والتعديلات والتعزيزات وإخفاء اللازم.

فستان وقبَّعة وقفَّازات. أنا من كل الأشخاص وجَبَ عليَّ أن أعرِف.

رآهـا «تويـكي» أيضًـا وهمَّـس: إنهمـا نفـس ا لشـخص .

كانـت الباروكـة الحمـراء الفاقعـة عـلى مـا أعتقـد تُخفـي شـعر الأذن المُمـيَّز، وتجـذب الانتبـاه مـن الوجـه، وبعـد التعديـلات للشـفاه وللرمـوش وللعينَين.

الأمـر سـهل. بعـضٌ مـن طـلاء الوجـه، لا توجَـد سـيدة محترمـة سـتعترِف باسـتخدامها تلـك الخدعـة، ولكـن كنـتُ قـد سـمعت أن بعضهـم يفعلهـا، وليـس كأن ذلـك الشـخص محـترم أو حـتى سـيدة.

قـال «تويـكي» وهـو يُشـير إلى الرسـومات: لـو كان ذلـك «كـتر»، فمـن تلـك؟

قلـتُ لـه بالرغـم مـن أن الاسـم لـن يعـني أي شيء: مـدام ليليـا سـيبيل دي بابافـر.

- أنـا لا يُهمُّـني وإن كنـتَ أمـير ويلـز، فسـتنتظِر دورك مثلـك مثـل أيِّ شـخصٍ آخـر، اجلـس عـلى مقعـدك.

قالهـا الرقيـب الجالـس عـلى مكتبـه دون أن يرفـع حـتى عينَيـه لينظُـر إلينـا، واسـتمرَّ في النظـر لأوراقـه، وهـو يُشـير بيـده الثخينـة ناحيـة الـرواق خلفـه.

ابتسـمتُ لـ«تويـكي» الـذي قـدَّم نفسـه كفيسـكونت

تويكسبيري باسيليويذر، وبدا عليه الآن أنه لا يعرف إن وجَبَ عليه أن يضحك أو أن يبكي.

همستُ له: سأنتظر معك.

وبشكلٍ ما، وخلال زيارتنا لسكُتلانديارد، كنت سأنجز عملي الخاص.

كما حدث حين أخذتُ دراجتي وانطلقتُ بعيدًا عن كينفورد، فإنَّ أفضل خطةٍ بالنسبة لي الآن هو ألَّا أملك خطةً على الإطلاق.

«تويكي» وأنا جلسْنا على واحدٍ من عدة مقاعد خشبية موضوعة في رواق مظلم ذي أرضية خشبية.

كانت المقاعد فردية، وصلبة، أسوأ من أي مقعد كنيسة جلستُ عليه من قبل.

جالسًا بجانبي تمتمَ «تويكي»: أنت محظوظة بكل ذلك الحشو الذي ترتدينه.

يا له من شيءٍ صادم ليُقال.

- صه!

- لا تقولي لي أن أسكُت، قولي لي مَن أنتِ.

- لا.

أبقيتُ صوتي مُنخفضًا حيث إنه على طول

الردهـة كانـت هنـاك مقاعـد أخـرى مليئـة بأشـخاصٍ في انتظـار دَورهـم للتحـدُّث مـع الشرطـة، غارقـين في محادثاتهـم ومشـاكلهم الشـخصية.

عـلى أي حـالٍ لا أحـد منهـم نظَـر لنـا أو اهتـمَّ بوجودنـا.

كان لـدى «تويـكي» بعـض العقلانيـة ليخفِـض صوتـه وهـو يقـول: ولكنـك أنقـذتِ حيـاتي، ربمـا. أو عـلى الأقـل أنقـذتِ شرَفي، وأنـتِ... وأنـتِ فعلـتِ الكثـير مـن أجـلي. أُريـد أن أشـكرك، مـن أنـتِ؟

هززتُ رأسي نافية.

- لماذا تُريدين أن تَبدي كخادمةٍ عجوز؟

- أيها الصبيُّ المروِّع، حافظ على لِسانك.

- أيتها الفتاة المروِّعة، ألن أعرف اسمَك أبدًا؟

- صه! صه!

لا. تمنيـتُ ألَّا يعِـرف اسـمي أبـدًا، ولكـني لـم أقُـل لـه ذلـك، ولكـن عوضًـا عـن ذلـك مـرةً أخـرى قلـتُ لـه: صـه!

وأنـا أمسـك بذراعـه حيـث في بدايـة الـرواق مـن ناحيتنـا فُتـح بـاب ورأيـتُ رجـلًا مألوفًـا يخـرج منـه.. رجُـلان مألوفـان.

للحظةٍ شعرتُ أني سأفقد وعيي، وليس بسبب المشدِّ أيضًا.

فلتُساعدني السماء. واحد من الرجُلين كان المفتش «ليستراد»، ولكني أدركتُ من قبل أنَّ قراري بمصاحبة «تويكي» إلى سكتلانديارد به احتمالية أن أقابل ليستراد، وكنتُ واثقة أنه لن يستطيع التعرُّف عليَّ دون رداء الأرملة الذي كنتُ أرتديه حين التقيتُ به لوقتٍ قصير في بسيل ويذر، لا.. ما جعلني أشعُر بضعفٍ وأثار قلقي كان رؤية الرجل الآخر «شيرلوك هولمز».

في عقلي أجبرتُ نفسي على أن أستمرَّ في التنفُّس، وأن أجلس بشكلٍ طبيعي. أن أندمج مع الخشب الداكن من حولي، والمقعد الصلب، والبراويز على الحوائط كما يفعل حجل الدجاج حين يندمج مع الشجيرات.

يا إلهي، يجِب ألَّا يُلاحظاني.

لو أن أيًّا منهما تعرَّف عليَّ فإن الأيام القليلة التي حظيتُ فيها بحُريتي ستنتهي.

ببطءٍ تحرَّكا باتجاهنا غارقَين في محادثة.

بالرغم من أن أخي كان أطول من ليستراد الذي

يُشبه النمس، حتى إنه احتاج أن ينحني قليلًا ليُقرِّب رأسه من رأس الرجل الأقصر، بعد أول نظرةٍ مرتبكة تجاههما نقلتُ عينيَّ لقدَمي.

وتركت يد «تويكي»، وأخفيتُ قبضتي المرتعِشة في جيوب التنُّورة.

- ... لا أستطيع أن أصنع رأسًا من ذيلٍ من قضية «باسيلويذر».

جاء صوت ليستراد.

- أتمنَّى أن تُلقي نظرة على تلك القضية يا هولمز.

- هولمز؟

شهق «تويكي» وانتصبتْ قامته بجانبي.

- أذلك هو؟ المُحقق الشهير؟

همست: أرجوك اسكُت.

أنا متأكدة أنه شعر بمشاعري القوية من خلال صوتي لأنه أطاعني بالفعل.

شيرلوك كان يقول لليستراد: ليس الأمر بأهمية رغبتي أن تجِد ضبَّاطًا أكثر للمساعدة في العثور على أختي.

كان صوت أخي مشدودًا كوتَرٍ كمان، كان هناك شيء في صوته، شيء لم يُقَل جعلني أشعر بفراشاتٍ من المشاعر تُحلق في قلبي بألَم.

- أريد أن أفعل ذلك يا صديقي العزيز.

كان هناك تعاطف في صوت «ليستراد»، ولكن كان هناك أيضًا القليل من الشماتة لو لم أكن مُخطئة.

- ولكن يجب عليك أن تُعطيني أكثر من ذلك لأعمل به.

- الخادم يؤكد أن أمي لم تحتفظ بأي بورتريهات لنفسها أو لإينولا لأكثر من عشر سنوات، امرأة مُحيِّرة.

- حسنًا، ولكن لدَينا ذلك الرسم الذي رسمتَهُ لأختك.

تلك المرة شعرتُ بنبرة فرح في صوت مُحقق سكوتلاند يارد.

ارتفعت يد أخي مُمسكة بذراعه لتوقِفه، الاثنان وقفا أمامي أنا وتويكي مباشرة. حمدًا للعناية الإلهية، وربما للحظ الأعمى، فإنَّ شيرلوك وقف وهو يوجِّهُ ظهره مباشرةً لي.

- انظر هنا يا ليستراد.

صوت أخي لم يكن غاضبًا، ليس بالضبط، ولكن نبرتُه كانت أخاذة من شدَّتها، جعلت قلبي يزدهر فخرًا من أجله، وقدرته على الحصول على كامل انتباه الرجل الآخر.

أخبرَه شيرلوك: أعلم أنك تعتقد أنَّ تلك ضربة كبيرة لكرامتي، إن كلًّا من أمي وأختي مفقودتان، ولا يمكنني أن أجد أي خَيط عن الأولى، ويجب عليَّ أن أشكرك عن المعلومات التي وفَّرتَها لي عن الثانية، ولكن...

قاطعه ليستراد وعيناه تومِضان وتتَّجِه يمينًا ويسارًا: أوكد لك، لم أفكر في أي شيءٍ مثل هذا.

- كلام فارغ. أنا لا ألومك، أنت لستَ أسوأ ممَّن هم أفضل منك.

بيد واحدة مُغطاة بقفَّاز أسود أشاح شيرلوك وكأنه يمحو تلك الجملة المُربكة التي قالها للتو، ليستدعي انتباه المُحقق مرة أخرى.

- ولكن يا «ليستراد»، أريد أن أُخبرك ألا تشغل ذهنك بالسيدة إيدوريا فيرنيت هولمز، فقد كانت تعرف جيدًا الذي تفعله، وإذا حدث لها مكروه فلا

يمكـن أن تلـوم سـوى نفسـها.

اعتـصَرَ الألـم قلـبي مـرةً أخـرى، ولكـن لـم تكـن آلام الفراشـات، ولكـن ألَـم مختلـف.

في ذلـك الوقـت لـم أكـن أعـرف نقطـة ضعـف أخـي العبقـري الوحيـدة، لـم أكـن أعـرف أن المالنخوليـا كانـت تجعـل كلماتـه قاسـية.

- وعـلى أيِّ حـالٍ فـإن إينـولا هولمـز حالـة مختلفـة تمامًـا. فـإن أختـي بريئـة ومُهملـة، وغـير مُتعلمـة، وسـاذجة. حالمـة.. أشـعُر أنـه خطـئي أني لـم أبـقَ معهـا، بـدلًا مـن أن أتركهـا في رعايـة أخـي مايكروفـت، فبالرغـم مـن رجاحـة عقلـه، فليـس لديـه الصبـر. لـم يكـن يفهـم أبـدًا أنَّ الأمـر يحتـاج إلى وقـت، ليـس مجـرد سرج لتـدرِّب المُهـر، بالطبـع الفتـاة هربـت، فـإن لدَيهـا روح أكـثر مـن ذكاء.

من تحت نظَّارتي وقصتي تجهَّمت.

قـال ليسـتراد: كان يبـدو عليهـا الـذكاء حـين تحدَّثتُ معهـا. فقـد خدعتْـني، كان يمكنـني أن أقسـم أنـني أتحـدَّث مـع آنسـة في عمـر الخمسـة والعشريـن عـلى الأقـل. متوازنـة، مُتحدِّثـة لبقـة، ورصينـة...

خـفَّ تجهُّمـي قليـلًا، وشـعرت أني أستحسِـن

ليستراد.

قال أخي: رصينة وخصبة الخيال، ربما.. ولكن نقاط ضعف جنسِها ولا عقلانيتهنَّ يؤثِّران بها. على سبيل المثال لماذا قالت اسمها للحارس؟!

- ربما رغبة في التحدِّي، أو ربما لأنها كانت تريد الدخول، فقد كانت عقلانية كفاية بعد ذلك لترحَل على الفور إلى لندن، حيث سيكون من الصعب جدًّا إيجادها.

- وحيث سيكون من السهل جدًّا أن يحدُث لها أي مكروه حتى لو كانت في الخامسة والعشرين من عمرها وليست في الرابعة عشر.

- وذلك يُعيدنا إلى ما كنتُ أقوله من قبل، فأي شيء يمكن أن يحدُث لشخصٍ في عمر الزهور مثل ابن دوق بسيل ويذر.

في تلك اللحظة تنحنح «تويكي» قائلًا: إحم...

ثم وقف.

لذا فكما ترى لم أملك أي فرصة في التفكير، وبدا لي في ذلك الوقت أنني لا أملك خيارًا؛ فهربت.

بينما كان المُفتش والمُحقِّق العظيم يستديران ليتأمَّلا الصبي الذي يرتدي ملابس العامة.

بينما يُحدِّقان إليه بدأ الإدراك في النزول عليهما، وقفتُ أنا وتحرَّكت ماشيةً بهدوء.

لمحتُ فقط جزءًا من وجه أخي، فقد كنتُ أعرف كم من النادر أن يتسنى لك رؤية شيرلوك هولمز وقد بدت عليه الدهشة.

كنتُ سأستمتع بتلك اللحظة أكثر من ذلك، ولكني لم أُطِل تباطؤي وأخذت عدة خطواتٍ في الردهة، لأفتح أول بابٍ في طريقي لأدخل وأُغلقه خلفي.

وجدت نفسي في مكتبٍ به عدة مكاتب، كلها خالية باستثناء واحد.

- عذرًا.

قلتُها للشرطي الشاب الذي رفع رأسه من على الأوراق من أمامه وقلت: الرقيب يريدك في مكتب الاستقبال.

في أغلب الظنِّ افترض أني موظَّفة جديدة في سكوتلاند يارد، كاتبة أو سكرتيرة أو شيء من هذا القبيل.

هزَّ رأسه ووقف واتَّجه للخارج، خرجتُ أنا الأخرى ولكن استخدمت النافذة، قفزتُ فوق حافة الشبَّاك

وكأني أصعد على الدرَّاجة، ونزلت على الرصيف وكأني أنزل من على الدرَّاجة الناحية الأخرى، كان هناك مارَّة بالتأكيد، ولكن دون أن أنظر لأيٍّ منهم وكأنما ما فعلته بالخروج من شباك مبنًى حكومي هو شيء طبيعي، خلعتُ نظارتي وألقيتُ بها في الشارع حيث دهسَها في لحظاتٍ حصان يهرول، وقفتُ وفردتُ ظهري ومشيتُ في سرعة كما يليق بامرأةٍ شابة عاملة.

وعلى الناصية كان هناك عربة عمومية تقِف، صعدت إليها ودفعت الأجرة وأخذت مقعدي بجانب سكَّان لندن الآخرين ولم أنظر خلفي.

في الأغلب فإنَّ أخي وليستراد كانا ما يزالان يحقِّقان مع تويكي، بينما تحركت الحافلة الكبيرة تهتزُّ في طريقها.

على أي حالٍ كنت أعرف أنهما لن يحتاجا إلى وقتٍ كبير قبل أن يتقفَّيا أثري، تويكي سيُخبرهما أنَّ فتاةً ترتدي زي أرملة قد هربت معه من قارب «كتر»، فتاة اسمها هولمز.

في الأغلب الآن، فإن تويكي قد التفتَ ناحيتي ليُقدِّمني ولكن وجد الخواء ينتظره فيما عدا رسمتَين تمنيتُ أن ليستراد سيُدرك أهميتهما بعد

حديثـه مـع تويـكي.

كنـتُ نادمـة أني تركـتُ تويـكي فجـأةً دون وداع، ولكـن لـم يكـن هنـاك شيء أسـتطيع فعلـه، فعـليَّ أن أجـد أمـي.

كنـتُ أيضًـا آسـفة أني لـم أسـتطع أن أقـضي وقتًـا أكـثر مـع أخـي شـيرلوك حـتى لـو كنـتُ مُتنكِّـرة وجالسـة أنظـر إليـه وأسـمعه ويـزداد إعجـابي بـه.

الحقيقة أني اشتقتُ إليه.

كان هنـاك الكثـير مـن التَّـوق في قلـبي كمـا لـو كنـتُ دعسـوقة، دعسـوقة تريـد أن تطـير إلى المـنزل...

ولكـنَّ أخـي المُحقـق الشـهير لـم يكـن يهتـمُّ بإيجاد أمـي فقـد كانـت تُحـيِّره، كل مشـاعري المُرتبكـة تجاهـه قـد طُوِيـت أجنحتُهـا لتتحـوَّل إلى وجـعٍ في القلـب.

بالرغـم مـن ذلـك ربمـا كان ذلـك أفضـل، شـيرلوك ومايكروفـت كانـا لا يريـدان لأمـي أن تعـود إلى فرنديل، وبالطبـع أمـي لـم تُـرِد العـودة إلى هنـاك، حـين أجدها (وليـس إذا وجدتهـا) لـن أطلُـب منهـا أيَّ شيء يجعلهـا حزينـة، لـم أكـن أبحـث عنهـا لأسـلُبَها حُريتهـا، فقـط احتجـت أن يكـون لي أمر. هـذا كل شيء. أن أكـون عـلى تواصُـل معهـا، ألقاهـا كلَّ فـترةٍ لنتحـدَّث عـلى كـوبٍ

مـن الشـاي.

أن أعـرف أيـن هـي، وعـلى الرغـم مـن ذلـك فـإن المـرء لا يمكنـه إلا أن يخـاف، ففـي مـكانٍ مـا في عقـل المـرء هنـاك تخـوُّف أن يكـون وقـع لهـا مكـروه.

أتخيَّـل أنـه في الأغلـب أن أمـي قـد ذهبـت إلى مـكانٍ لا يوجَـد فيـه مشـدَّات، ولا مُحسِّـنات ملابـس، ولا حشـو أرداف ولا قُبعـات ولا أحذيـة، مـكان وسـط الزهـور، وسـط الخـضرة.

مـن السـخرية أنـني باتبـاع مثلهـا في الهـروب فـإني قـد ذهبـتُ لتلـك المدينـة الأشـبه ببالوعـة، ولـم أر بعـدُ قـصرًا أو عربـةً ذهبيـة أو سـيدة ترتـدي الفـرو والمـاس، وعوضًـا عـن ذلـك فـكل مـا رأيتـه هـو امـرأة عجـوز تزحَـف عـلى الرصيـف ورأسـها قـد غزَتْـه الأمـراض الجلديـة.

بالتأكيـد أمـي لـن يقـع بهـا الحـال إلى تلـك الدرجـة، لا يمكـن أن يحـدُث ذلـك.. أليـس كذلـك؟

يجـب عـليَّ التأكُّـد أن هـذا لـن يحـدُث، وكل مـا أملكـه هـو بضـع سـاعات لأتحـرَّك قبـل أن تبـدأ شرطة لنـدن كلهـا في البحـث عـني.

أنـزل مـن الحافلـة في المحطـة التاليـة، وأعـبر

حيًّا، ثم أوقِف عربة أجرة، ذات أربع عجلاتٍ من أجل أن تكون مُغلقة تمامًا ولا يظهر وجهي، أُخبر السائق: شارع فليت.

وبينما هو يناور خلال حركة المرور الكثيفة في المدينة مرةً أخرى آخُذ الورقة والقلم الرصاصي في يدي لأكتب رسالة:

شكرًا لك يا أقحوانتي

هل تزهرين؟

فلتُرسلي السوسن أرجوك.

كنتُ أتذكَّر بالضبط من كتاب معنى الزهور أنَّ السوسن تعني رسالة، فوضع سوسنة في باقة زهور كانت تُخبر المُتلقِّي أن ينتبه لمعنى كل زهرة، كانت الإلهة آيرس اليونانية (التي تعني السوسن) تحمل الرسائل ما بين جبال أوليمبس والأرض عن طريق جِسرٍ من قوس قزح.

كان هناك الكثير من الفقرات الأخرى في كتاب معاني الزهور لم أستطع تذكُّرها جيدًا، وبمجرَّد أن أجد مكانًا للسكن، يجِب عليَّ أن أحصل على نسخةٍ

أخـرى مـن الكتـاب.

بمـرارةٍ كنـتُ أنـدم عـلى فقـداني النسـخة الـتي لا تُعـوَّض الـتي حصلـتُ عليهـا مـن أمـي؛ أعـزَّ تـذكارٍ منهـا، كتـاب الشـفرات.

تُـرى مـا الـذي فعلَـه «كـتر» بـه، لـن أعـرف أبـدًا (أو عـلى الأقـل ذلـك مـا اعتقدتُـه وقتهـا).

ولكـن أكـدتُ لـذاتي أنـني لا أحتـاج لأيٍّ غـرَض عمـلي حاليًـا (مـرة أخـرى اعتقـدت ذلـك).

آخُـذ الرسـالة الـتي كتبتُهـا، وأُحوِّلهـا إلى شـفرةٍ بـأن أقلِبَهـا،

MAREYOUBLOOMING?SENDIRISPLEASE
THANKYOUMYCHRYSANTHEMU

ثم أعدل مكان الكلمات.

EALSRDE?NMOBOEAUETAYHYUYNH
SEPIINSGIOLUYRMMHNSRCMOKAT

ثـم وأنـا أهـتزُّ عـلى مقعـدي في عربـة الأجـرة، عكسـتُ ترتيـب الأسـطر في رسـالتي.

سـأضع تلـك الرسـالة في الإعلانـات الشـخصية في عمـود جريـدة «البـال مـول» والـتي كانـت أُمـي كثـيرًا مـا تتفقَّدهـا.

وأيضًـا في مجلـة المـرأة الحديثـة، وفي جريـدة تجديـد الـرداء. وإصـدارات أخـرى تُحبُّهـا.

كانت شفرتي تبدو كهذا

«Tails ivy **SEPIINSGIOLUYRMMHNSR-CMOKAT** tips ivy **EALSRDE?NMOBOEAUE-TAYHYUYNH** your Ivy»

كنـتُ أعـرف أن أمـي لا تسـتطيع مقاومـة أي شـفرة، وكانـت سـتعطي تلـك الشـفرة كامـل اهتمامهـا حـين تراهـا، وكذلـك كنـتُ أعـرف أنـه للأسـف أن أخـي «شـيرلوك» الـذي كان مـن عادتـه أن يقـرأ مـا يدعـوه عواميـد العـذاب في الجرائـد اليوميـة سـوف يلاحظهـا أيضًـا، ولكـن بمـا أنـه لا يعـرف عـن اللبلاب الـذي ينمو للخلـف عـلى أسـوار الحديقـة؛ فربمـا لـن يسـتطيع أن

يفكَّ الشفرة. وحتى لو حلَّها، أشكُّ أنه سيفهم أو يربط تلك الشفرة بي.

ذات مرة في وقتٍ يبدو بعيدًا ويبدو وكأنه في عالم آخر ولكن حقًّا كان فقط من ستة أسابيع كنتُ أبدِّل في طريق الريف مُفكرة في أخي، صانعةً قائمةً في رأسي بكل مواهبي لأقارنها مقارنةً خاسرة مع مواهبه، والآن.. وأنا في عربة الأجرة في لندن بدلًا من درَّاجة وجدتُ نفسي أضع في ذهني قائمةً مختلفة من مواهبي وقُدراتي. فأنا أعرف أشياء قد يفشل شيرلوك هولمز حتى في تخيُّلها، حيث إنه فشل في إدراك أهمية حشو الأرداف ومُحسِّن الملابس، حيث وضعتْ أمي أمتعتها به، والقبعة الطويلة التي ارتدتْها، التي أشكُّ أنها قد وضعت الكثير من الأوراق النقدية بداخلها.

أنا على الجانب الآخر قد فهمتُ استخدامات تلك الأشياء وأهميتها، لقد أثبتُّ لنفسي أني ماهرة في التنكُّر أيضًا، وأني أستطيع فكَّ شفرة معاني الزهور. الحقيقة وبينما شيرلوك هولمز ينبذ فكرة الجنس اللطيف، كونهنَّ غير عقلانيَّات وغير مُهمَّات فأنا أعرف في الحقيقة أن عقله المنطقي لن يستطيع أن يفهم.

كنتُ أعرف عالمًا كاملًا من التواصُل الذي تملكه المرأة، ورموزًا سرِّية أتعرَّفها من حافة قُبعة، وتمرُّدًا من محرمة، وخدعةً من مروحة ريش، وتحدِّيًا خفيًّا، ختمًا شمعيًّا، ورسائل يمكن أن تكون موجودة في وضعية طابع البريد، دعواتٍ، وعباءة أنيقة لمؤامرة أستطيع أن ألفَّ نفسي بها.

توقعتُ أنه دون صعوبةٍ كبيرة كان يُمكنني أن أخفي أسلحةً ووسائل دفاعٍ ومُؤنًا داخل مشد. يُمكنني أن أذهب إلى أماكن وأُتمَّ أعمالًا لا يستطيع شيرلوك هولمز فهمها أو تَخيُّلها أو أن يُخطط لها.

لندن نوفمبر ١٨٨٨

مـن مسـكنها خرجـتِ الغريبـة مُرتديـة الأسـود بالكامـل، في وقـتٍ متأخِّـر مـن الليـل، لتتجـوَّل في الشـوارع في الجنـوب الـشرقي، ومـن خصرها المُسـتقيم تأرجحَـتْ مسـبحة. كانـت خرزاتهـا الأبنوسـية تقرقِع مع كل خطـوة. رداء الراهبـات كان يُغطـي جسـدَها الرفيـع مـن رأسـها وحـتى أخمـص قدمَيهـا. في يدِهـا حملـت طعامًـا وبطانيَّـاتٍ وملابـس للعواجـيز المسـاكين الـلاتي كـنَّ يحتمـينَ برصيـف الملجـأ.

كان يُطلـق عـلى أولئـك النسـاء الزاحفـات «النيام»، وتُعطـي أيضًـا أيَّ شـخصٍ آخر تجـده ذا حاجـة. قاطِنو الشـوارع تقبَّلـوا عطفهـا وأطلقـوا عليهـا «الأخـت». لا أحـد يعرفهـا بـأيِّ اسـمٍ آخـر؛ حيـث إنهـا لا تتحـدَّث أبـدًا، وكأنهـا أخـذت نـذور صمـتٍ وعزلـة، أو ربمـا لا ترغَـب في التَّباهـي بحديـثٍ مُثقَّـفٍ حـتى لا تخونهـا لهجتُهـا وتظهـر كواحـدةٍ مـن النبـلاء.

صامتـة تـأتي وتذهـب، موضـوع يُثـير الفضـول في البدايـة، ولكـن يـكادون لا يلاحظونهـا بعـد مـرور عـدة

أيـام.

في منطقـةٍ أكـثر ثـراءً في الجـزء الخـاص بالفنانـين في المدينـة، أحدُهـم يفتـح مكتبًـا في نفـس المبـنى القُوطـي الـذي كانـت مـدام ليليـا سـيبيل دي بابافـر المُنجمـة كانـت تعقـد جلسـاتها مـن قبـل، أو جلسـاته كمـا عرَفْنـا بعـد صدمـة القبـض عليـه.

كانـت فضيحـة الموسـم، وبعـد أن ذهـب سـاكن المـكان للسـجن، ظهـر في ذلـك المـنزل الـذي تُطـلُّ نافذتـه عـلى الخليـج لافتـة أنـه قريبًـا سيسـتقبل دكتـور «لـيزلي تي راجوسـتين» البريديتوريـان العلمـي وبالطبـع يجِـب أن يكـون العالِـم رجـلًا، ورجـلًا مُهمًّـا، مشـغولًا بالجامعـة أو بالمتحـف البريطـاني، ولذلـك السـبب بالتأكيـد فـإنَّ أحـدًا لـم يـرَ بعـد دكتـور «لـيزلي تي راجوسـتين»، ولكـن كل يـوم فـإن سـكرتيرته تـأتي وتذهـب، واضعـةً أشـياءً في المكتـب الجديـد، ومُتولِّيـةً شـئونه، هـي شـابة صغـيرة عاديـة، لا يُميزهـا سـوى كفاءتهـا، مثلهـا مثـل آلافٍ مـن الشـابَّات الـلاتي يعملـن في المكتبـات، وفي الاخـتزال، يعشـنَ في لنـدن ليسـتطعن إرسـال القليـل مـن المـال لعوائلهـن.

كان اسمها هو «إيفي ميشيل».

يوميًّـا كانـت «إيفـي ميشـيل» تتنـاول غداءهـا مـع

النساء العاملات في غرفة الشاي القريبة من مكان عملها كما يليق بفتاةٍ محافظة تعيش وحيدةً في المدينة الكبيرة، فهناك كانت مَحميَّةً من أي تواصُلٍ مع ذَكَر لا ينوي خيرًا.

تجلس وحيدةً لتقرأ جريدة البال مول، ودوريَّاتٍ أخرى، وكانت قد وجدت بالفعل في واحدةٍ من تلك الإصدارات في قسم الإعلانات الشخصية شيئًا أثار اهتمامها جدًّا.

أثار اهتمامها لدرجة أنها قصَّتْهُ من الدورية لتحتفظ به، كان يقول:

نصائح «آيرس لإيفي»

ABOMNITEUNTNYHYATEUASRMLNRSML

OIGNHSNOOLCRSNHMMLOABIGOE

في بعض الأحيان وحيدة في بيتها الرخيص، كانت الآنسة «ميشيل» أو الأخت الخرساء تسحب تلك الورقة المقطوعة من جيبها لتجلِسَ ناظرةً إليها، بالرغم من أنها قد فكَّتْ شفرتها منذ زمن.

«أنـا أزدهـر في الشـمس. ليـس الأقحـوان فقـط ولكـن أيضًـا الـورود المُتسـاقطة».

تلك الرسـالة قـد بُعثـت إليهـا مـن قِبَـل امـرأة حُرة، مـن مـكانٍ لا يوجَـد فيـه دبابيـس شـعر، ولا مشـدَّات، ولا مُحسِّـنات ملابـس، ولا حشـو أرداف، مـع الغجـر في الأراضي الواسـعة.

إذا كانـت سـتنتقّل إلـى مسـافة طويلـة لماذا لـم تسـتخدِم درّاجـة؟

لماذا لم تستخدِم البوابة؟

لـو كانـت ارتحلـتْ عبـر البـلاد سـيرًا علـى الأقـدام إلـى أيـن كانـت ذاهبـة؟

فرضيـة واحـدة تُجيـب عـلى الأسـئلة الثلاثـة؛ المـرأة الهاربـة لـم تكـن لتقطـع مسـافة كبـيرة، احتاجـت فقـط أن تمـشي إلى المنطقـة الريفيـة حيـث قابلـت عربـة رحَّالـة إنجلـيز اتَّفقـت معهـم مـن قبـل؛ ففـي كتـاب معـاني الزهـور فـإنَّ الـورود المتسـاقطة تعـني التجـوُّل بحريـةٍ كحيـاة الغجَـر.

ولـو كان هنـاك لمسـة مـن اللصوصيـة في طبيعـة

الغجـر؛ فيبـدو أنَّ هنـاك لمسـة كتلـك مـع يدوريـا فيرنيـت هولمـز كمـا بـدا في تعاملاتهـا مـع مايكروفـت هولمـز، ويبـدو أنهـا تسـتمتِع بوقتهـا.

سـؤال واحـد مـا يـزال دون إجابـة: «لمـاذا لـم تأخـذني أُمـي معهـا؟».

لـم تعُـد تلـك الفكـرة تُمثِّـل لهـا نفـس الإزعـاج الـذي كانـت تُسـبِّبه مـن قبـل، فتلـك المـرأة المُحبَّـة للحريـة قـد كـبُرت في السـن، وشـعرت أنَّ لدَيهـا وقتًـا قصيـرًا لتحقيـق حُلمهـا قبـل أن تمـوت، وقـد فعلـت مـا في وُسـعها مـن أجـل ابنتهـا الـتي أنجبتْهـا متأخِّـرة، ربمـا في وقـتٍ مـا في الربيـع حـين يكـون الجـوُّ دافئًـا كفايـة للارتحـال، سـتنطلق باحثـةً عـن والدتهـا بـين الغجَـر.

تُخطـط الفتـاة الـتي تمـشي وحيـدة، ولكـن في تلـك الأثنـاء وبينمـا هـي تتأمَّـل قصاصـات الجرائـد فـإنَّ وجههـا الطويـل الحـاد يَلـين، ويـكاد يُصبـح جميـلًا، وقـد ارتسـمت بسـمةٌ عـلى وجههـا لأنهـا تعـرف أنَّ في لغـة الزهـور السِّريـة أن أيَّ وردةٍ مـن أيِّ نـوعٍ تعـني الحُـب.

النهاية

NETFLIX AND LEGENDARY PICTURES PRESENT
A LEGENDARY PICTURES PRODUCTION
A PCMA PRODUCTION
"ENOLA HOLMES" MILLIE BOBBY BROWN SAM CLAFLIN
ADEEL AKHTAR FIONA SHAW FRANCES DE LA TOUR
LOUIS PARTRIDGE BURN GORMAN SUSAN WOKOMA
WITH HENRY CAVILL AND HELENA BONHAM CARTER
CASTING BY JINA JAY MUSIC BY DANIEL PEMBERTON COSTUME DESIGNER CONSOLATA BOYLE
EDITED BY ADAM BOSMAN PRODUCTION DESIGNER MICHAEL CARLIN DIRECTOR OF PHOTOGRAPHY GILES NUTTGENS, BSC
EXECUTIVE PRODUCERS JOSHUA GRODE MICHAEL DREYER HARRY BRADBEER
PRODUCED BY MARY PARENT, p.g.a. ALEX GARCIA, p.g.a. ALI MENDES,
p.g.a. MILLIE BOBBY BROWN PAIGE BROWN
BASED UPON THE ENOLA HOLMES MYSTERY BOOK "THE CASE OF THE MISSING MARQUESS: AN ENOLA HOLMES MYSTERY" BY NANCY SPRINGER
SCREENPLAY BY JACK THORNE DIRECTED BY HARRY BRADBEER

LEGENDARY

NETFLIX

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية.

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublish.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublish.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتّبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتّابنا الثقافية.

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing